



25.3.2016

## ياسمينه

(وقصص أخرى)

تأليف: إيزابيل إيرماردت  
ترجمة: حسن دوامس  
مراجعة: د. ليلى عثمان فضل

• ياسمينة  
(وقصص أخرى)



العنوان الأصلي:

**Isabelle Eberhardt**

**Yasmina Et Autres Nouvelles Eberhardt**

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012م

إبداعات عالمية - العدد 390

---

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

---

أسماها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

# ياسمينه

## وقصص أخرى

تأليف: إيزابيل إبراهيم

ترجمة: حسن دواس

مراجعة: د. ليلى عثمان فضل

# إبداعات قلمية

عدد ١٤ شهرية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين البوحي

مستشار التحرير:

د. سليمان خالد الرياح

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي مجيد العنزي

د. ليلى عثمان فضل

أ. وليد جاسم الرجيب

د. بدرية أحمد الحجي

مديرة التحرير

ليياء القبندي

التنفيذ والإخراج والتنفيذ:

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat\_alamia@yahoo.com

## سعر النسخة

الكويت ودول الخليج 500 فلس  
الدول العربية الأخرى ما يعادل دولارا أمريكيا  
خارج الوطن العربي دولاران أمريكيان

## الاشتراكات

### دولة الكويت

للأفراد 10 د.ك  
للمؤسسات 20 د.ك

### دول الخليج

للأفراد 12 د.ك  
للمؤسسات 24 د.ك

### الدول العربية الأخرى

للأفراد 25 دولارا أمريكيا  
للمؤسسات 50 دولارا أمريكيا

### خارج الوطن العربي

للأفراد 50 دولارا أمريكيا  
للمؤسسات 100 دولارا أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل

على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٧٧

ردمك: ٩-٣٦٩-٠٠-٩٩٩٩-٩٧٨

## الإهداء

إلى الروح التي اعتنقت ليل  
هذه الأرض وفجرها  
وعشقت خفايا رمال هذه الصحراء  
وسحرها  
إيزابيل إبرهاردت...  
وإلى كل المهتمين بالتراث الأدبي  
والرحلي  
لهذه الكاتبة المتميزة  
والرحالة الفذة.  
حسن



## قبل أي كلام!

لا شك أن ثمة علاقة خفية، لذيذة وغامضة تتشكل خيوطها الشفيفة تدريجيا بين الكاتب والمترجم في تواتر متموج يشد حيناً ويفتر آخر، وفق استقرار المترجم في عمل الكاتب واستحواذ النص على مشاعره، خصوصا إذا كان العمل المترجم نصا أدبيا إبداعيا، لما يطفح به عادة هذا النوع من النصوص من عصارة فكر الكاتب، وعطر أحاسيسه، مستخلصة من أعماق النفس السحيقة ولب الروح المبدعة، المحلقة في عوالم التخيل المنجح.

وقد حدث لي هذا الانجذاب الأسر وتشكلت هذه الصلة المبهمة مع الأستاذ الشاعر الدكتور عبد الله حمادي وأنا أترجم مجموعته الشعرية «يا امرأة من ورق التوت»، وقبله مع الشاعر الأستاذ يوسف وغليسي وأنا منهمك في ترجمة «تباريح اللحن الأخضر»، لكن الأمر بدا لي عاديا، فالدكتور عبد الله حمادي أستاذي منذ العام ١٩٨٩، ويوسف صديقي منذ سنوات عديدة، وقد جمعتني بهما أروقة الجامعة ومنابر الملتقيات الأدبية، فصلتي بهما قبلية؛ قرأت لهما وسمعتهما وتأثرت بهما قبل ترجمة نصوصهما.

لكن ما حدث لي وأنا عاكف على ترجمة هذه النصوص للكاتبة والرحالة إيزابيل إبرهاردت مختلف تماما. ذلك أن اكتشافي لها ليس بالبعيد، لكن بمجرد قراءتي لكتاباتنا المختلفة سواء الإبداعية أو الرحلية ويمجرد اطلاعي على بعض الجوانب من حياتها الأسطورية أحسست بانجذاب غريب ينمو وشغف بقراءة المزيد وترجمة المزيد، إذ أعتقد أن أحسن طريقة لقراءة نص ما هي ترجمته، ولولا انشغالي في هذه الفترة، وحتى كتابة هذه الكلمات بتحضير رسالة الماجستير لأكملت ترجمة بقية قصصها خاصة والتي لا شك أني سأعود إليها لاحقا بحول الله. وتذكرت ما قاله كثيرون حول جاذبيتها وتأثيرها الساحر في كل من يقترب من عالمها الشائق المبهم.

فهذا محمد رشد؛ الباحث الجامعي المختص في إيزابيل وكتاباتهما يعلن في محاضرة ألقاها بمناسبة إحياء ذكرى مؤيتها بالمكتبة الوطنية بالجزائر في أكتوبر ٢٠٠٤: «لقد لعبت إيزابيل إبراهيم دورا مهما، حتى لا أقول أساسيا في اهتدائي واندماجي في هذا البلد». وهذه الفرنسية إدموند شارل رو رئيس أكاديمية جونكور تقول في حوار لها لجريدة ليبرتي (Liberté)، أجراه معها الطاهر حوشي: «صحيح، عملت لمدة ١٢ سنة على أعمال إيزابيل ولكن شففي ظل نفسه. كل المواضيع تنتهي يوما ما إلى الملل واللامبالاة؛ غير أن الأمر مختلف بالنسبة إلى إيزابيل. الإعجاب دوما عنيف كما في اليوم الأول».

وذاك المارشال ليوثي الذي قال في كلمة بمناسبة وفاتها: «لقد فهمنا بعضنا البعض، أنا ومحمود المسكين، وسأحتفظ إلى الأبد بذكرى ممتعة لأحاديثنا المسائية، لقد كانت أكثر ما يشدني إلى العالم، كاسرة أشعة. أن تجد أحدا وهو حقيقة ذاته، بعيدا عن كل التعصب، عن كل الأكلشيهات، والذي يمر عبر الحياة منطلقا مثل طائر في الفضاء، يا لها من بهجة!».

أما المخرج الأسترالي يان برينغل (Ian Pringle) الذي أخرج فيلما حول حياة إيزابيل إبراهيم فيقول: «عندما قرأت نصوصا حول حياة إيزابيل إبراهيم، للمرة الأولى، هذه عشر سنوات تقريبا، لم أكن منجذبا ومنذها أمام هذه المرأة التي كانت حياتها قصيرة وغريبة فقط، لكن أحسست بنوع من القرابة معها كذلك».

ويضيف: «لقد كانت كل شيء: مخرجة، قديسة، بطلة، حسية، إعصار أنثوي والذي من عمقه تتدفق الحياة بلا انتهاء. كاتبة، مغامرة، ساذجة؛ ثائرة دوما، مدفوعة بقوى لا تفهمها، قضت حياتها القصيرة وهي تحاول التخلص من الفائض لتواجه الواقع».

إن كتابات إيزابيل إبراهيم أشارت اهتمام الكثير من الباحثين والدارسين والفضائين الغرب، وعلى سبيل الذكر، فقد ترجم روبرت



بونونو Robert Bononno كتابها «رسائل ويوميات» تحت عنوان: «سبع سنوات في حياة امرأة» رسائل ويوميات، (Seven Years in the Life of a Woman: Isabelle Eberhardt, Letters and Journals) ، وترجمت شارون بانغرت، (Sharon Bangert) ، وتحت ظلال الإسلام الدافئة، (In the Shadow of Islam) ، وصدرت في أكتوبر ١٩٩٤ عن أوون بيتر.

وصدرت ترجمة أخرى بالإنجليزية في العام ١٩٧٥ لصاحبها بول باولز Paul Bowles تحت عنوان: «الباحثون عن النسيان وكتابات أخرى» (The Oblivion Seekers & Other Writings) ، كما ترجمت نينا دي فوغد Nina De Voogd اليوميات تحت عنوان «الرحالة - يوميات إيزابيل إبرهاردت» (The Nomad Diaries of Isabelle Eberhardt) ، كما ترجم ميغال فرونتان Miguel Frontán قصصها إلى الإسبانية.

أما بالفرنسية فقد صدرت العديد من الكتب عن إيزابيل، وتمت إعادة طبع أعمالها الكاملة وادموند شارل رو وحدها أصدرت ثلاثة كتب حول حياتها وأعمالها: شوق إلى الشرق - شباب إيزابيل إبرهاردت (Désir d'Orient, (La Jeunesse d'Isabelle Eberhardt) ثم «رحالة كنت»، السنوات الأفريقية لإيزابيل إبرهاردت (Nomade J'étais, Les Années Africaines D'Isabelle Eberhardt) ثم «إيزابيل الصحراء» (Isabelle du Désert).

وهنا أتساءل أين نحن من تراثنا؟ أو لسنا أحق من كل هؤلاء وأولئك بإيزابيل وراثتها الأدبي والتاريخي والرحلي؟ أين نحن من حب إيزابيل لهذه الأرض وشعبها؟

لقد عشقت إيزابيل ليل الجزائر وفجرها، فغدت لا تتنفس هواء غير هوائها، ولا تفتش أرضا غير رمال صحرائها، عنابة، باتنة، العلمة، تلمسان، الجزائر، الوادي، قمار، بوسعادة، عين الصغراء... لا بقاع أرحب وأروع من هذه البقاع، مائها، رملها، سمائها، شمسها،

كان كل شيء، في عيون إيزابيل في الجزائر جميلا، ساحرا: «لقد مضى زمان طويل وأنا هنا، والبلد أخاذ إلى أبعد الحدود، وبسيط إلى أبعد الحدود، بتضاريسه ذات الرتابة المتوقعة، ليكون هذا التعلق وهما عابرا وجماليا، بالتأكيد لا، ما أسرني ولا سحرني إلى هذا الحد مكان آخر على الأرض كما فعلت فضاءات الوحشة المتحركة للمحيط الكبير الناشف، والتي من السهول الصخرية لقمار ومن منخفضات شط ملغيغي الملعونة تؤدي إلى صحارى سيناون وغدامس عديمة الماء».

نعم أحببت إيزابيل هذه الأرض، بكل جوارحها؛ كتبت عنها ولها، التحمت بروحها مع كل تفاصيل حياة شعبها وطقوس عيشه، تسرلت بسرrial شعبها، اعتنقت دينها، تكلمت لغتها الرخيمة الشجية، واحتضنت تربتها الدافئة في نومتها السرمدية.

كتبت مرة ميريام بيرد (Miriam Beard) حول الرحلة الحقيقية وكيف تؤثر في العمق الإنساني فكرا وروحا تقول: «أكد أن الرحلة أكبر من المشاهدة البصرية، إنها التغيير الذي يمضي قدما، عميقا ومستمر في أفكار الحياة»، وإيزابيل من الرحالة القلائل إن لم أقل الرحالة الوحيدة التي جسدت هذا المعنى بهذا الشكل التام، وذاك التحول الفكري والروحاني الذي شكل منها إيزابيل أخرى، بامتداد حضاري آخر، وروح شرقية جديدة».

الأشياء، كل الأشياء ربما يعتريها الذبول، فتذوي، تندثر إلا حبها لصحرائها: «نعم أحب صحرائي، وفي حب غامض، خفي، عميق، يتعذر شرحه، ولكن حقيقي خالص وسرمدية».

إن حب إيزابيل للجزائر، ولقيم المجتمع الذي عاشت بين ظهرانيه لا غبار عليه، وقد حان الوقت لأن ينفض الغبار وتدحض الإشاعات التي حاكها البيوغرافيون الغرب حول شخصية إيزابيل، فلربما زال الشك من حول سيرتها وأفكارها في ذهن الجزائريين المتعصبين الذين تعودوا على النهل من مناهل ما وراء البحر. وهذا

المسعى، في اعتقادي مهمة الجميع من الدارسين والكتاب والمؤرخين الجزائريين خاصة الذين أهملوا شهادة هذه الرحالة، وأهملوا دورها كشاهدة على بدايات القرن العشرين من تاريخ الجزائر العام عموماً والسوسيو الثقافي على الخصوص.

وإن شهادة الدبلوماسي الجزائري محمد الصالح دميري التي كتبها في جريدة «الجزائر الأحداث»، في العام ١٩٧٠، ونقلها محمد رشد في كتابه عن إبراهيمت، بادرة طيبة في الاتجاه السليم، لم تتبع بدراسات تعيد لإيزابيل اعتبارها وتمنحها المكانة اللائقة بها. يقول محمد الصالح دميري عن إيزابيل وموقفها من الجزائر والمجتمع الجزائري: «كصحافية شغوفة، وجزائرية متحمسة، انغمست في تحليل الحياة الإنسانية في الجزائر في تلك الفترة، متهمة التمييز الذي تفرضه الشؤون السياسية الاقتصادية الجديدة، والسلب المخزي والفاضح للسكان الأصليين، أدانت عصر القواد والموظفين ذوي النفوذ المكلفين بتعمير الجزائر. لقد كانت متأكدة من إفلاس الاحتلال، ذلك أنه في حين كان لويس برتراند وأنصاره بنزعة رومانية يستحضرون كل ما هو لاتيني أو مسيحي، كانت هي تعيد وبقوة القيم العربية الإسلامية والتحام العالم العربي البربري».

إن هذه المجموعة والتي تضم القصص التالية: الغريمة، نقيب اللوز، ياسمينة، النقيب، تتباين مواضيعها وتختلف؛ تحاول من خلالها إيزابيل رصد الحياة وعادات المجتمع الجزائري وأحلامه وآماله ومعاناته، وتبني قصصها غالباً على ثنائيات متناقضة متعددة: التقاء حضارتين، الحضارة العربية الإسلامية - الحضارة الغربية، المستعمر - المستعمَر، العامل - رب العمل، رجل الدين - المريدون، البؤس - السعادة وغيرها من الثنائيات، فقصّة ياسمينة على سبيل المثال قصة حب تعالج من خلالها التقاء الغرب في شخص الضابط جاك بالشرق الممثل في شخصية ياسمينة، وفي الوقت نفسه هو التقاء واختلاف المستعمر والمستعمَر في نمط

الحياة والتفكير وهو الصراع القائم بينهما، وتذكرني هذه القصة برواية «الجوهرة والأسد» (The Lion and the Jewel) للكاتب النيجيري صاحب جائزة نوبل بول سوينكا والذي من خلالها يعالج الصراع نفسه القائم بين الأفريقي والأوروبي.

ودياسمينة، ما هي إلا خطوة أولى أردت من خلالها أن أساهم ولو بجزء بسيط في التعريف بهذه الكاتبة والرحالة وبيع بعض أعمالها. تقول إيزابيل: «لست سوى شخص غريب الأطوار، حاملة تريد أن تعيش بعيدا عن العالم، أن تعيش الحياة الطليقة والراحلة، لتحاول بعد ذلك أن تقول ما رأت وربما أن تنقل إلى البعض بعض الارتعاشات الكثيبة المبهمة والأسرة التي تحس بها أمام الروائع الحزينة للصحراء».

وأنا بدوري أقول إنني من خلال هذا العمل المتواضع ما أردت إلا أن أقاسم القارئ المغرب لذة هذه النصوص الجميلة، وأن أنقل له بعضا من اختلاجات هذه الإيزابيل الجزائرية القضية والسلوك. إن الكلام عن إيزابيل ممتع وأخاذ ولو أطلقت العنان لبراعتي لما توقفت هنا، فليعدرنني القارئ الكريم عن هذه الإسهابات التي ربما جاءت في غير مكانها هنا، وليسمح لي بإنهاء هذا الكلام بهذا المقطع الشعري من قصيدة بعنوان: إيزابيل.. أميرة الرمل.

أميرة هذا الرمل...

ما عاد أريج الوردة يثلج مهجتنا

ما عادت تستهويننا مدن الفل

ما عاد غروب الشمس يهز مشاعرنا

ما عاد شروق الفجر الأسريدهشنا...

أوهده الليل

وهج الحس خبا  
والقلب عن الحسن نبا  
فغدت دنيانا مقبرة  
وصحارى الروح حدائق من وحل  
أميرة هذا الرمل  
كم غنيت ذي الأرض  
ها قلب الأرض إليك الآن يحن  
فخذي كل جلال الأرض  
ها نبض النبض إليك الآن يئن  
فخذي سحر جلال النبض  
وشموخ النخل  
وشذا الصحراء، وعطر التل  
يا امرأة من نار...  
يا امرأة من وهج الرمل.

حسن دواس

رمضان جمال، في: ٤ مارس ٢٠٠٥



## بيوغرافيا إيزابيل إبرهاردت

### ميلادها ونسبها

إن هوية إيزابيل إبرهاردت غير واضحة ويسودها كثير من الغموض، وقد أسالت حبر كثير من كتاب سيرتها، إذ إنها أعلنت ابنا غير شرعي بعد مرحلة من عمرها.

أمها ناتالي إبرهاردت، أرسطراطية ألمانية تتبع المذهب اللوثري (المصلح مارتن لوثر)، كانت متزوجة بالجنرال بول دي موردن والتي أنجبت منه ثلاثة أولاد حين قاما بتوظيف ألكسندر نيكولايفيتش ثروفيموفسكي المدعو فيفا كمربٍ للأولاد، كان ثروفيموفسكي - وهو قس أورثوذكسي أرمني سابق، ثم تحول إلى ملحد، عدمي - رجلا عالما، مثقفا، وفيلسوبا، ويتقن العديد من اللغات: التركية، والألمانية، والعربية والروسية، وكان فيفا جذابا فتعلقت به ناتاليا لتفر معه إلى سويسرا، تاركة زوجها. غير أن أسباب هروبها غير واضحة ويمكن أن تكون أسبابا سياسية، أكثر من فرار عاشقين، إذ ومن دون شك أن ثروفيموفسكي قد مارس دورا في الحركة الثورية الروسية في ذلك الوقت.

يائسا، كان بول دي موردن يتبع ناتالي في ترحالها عبر أوروبا لينتهي بهما الأمر إلى التصالح ويولد لهما ابن يعترف به الجنرال. لكن بعد سنة يموت بول دي موردن تاركا ثروة هائلة لزوجته.

أضت ناتالي وألكسندر السنوات التالية مع الأولاد مرتحلين عبر أوروبا، وكان ألكسندر يقوم بزيارة لروسيا بين الفينة

والأخرى للإشراف على إدارة أموال رفيقته.

وفي أحد غياباته المتكررة، وبالضبط في السابع عشر من فبراير سنة ١٨٧٧ وضعت ناتالي بنتا هي: إيزابيل، كان ذلك بجنيف في سويسرا في فيلا فانت (Fendt)، الواقعة بحي الكهوف (Quartier des Grottes).

لكن ثروفيوموفسكي رفض الاعتراف بأبوة البنت لعدائيته للعقود والأعراف، أو بتحريض من أطراف ما أو لسبب آخر، وحملت إيزابيل لقب جدتها إبرهاردت. لقد تعرض أمر ميلاد إيزابيل إلى كثير من المضاريات من طرف المهتمين بحياتها، حتى أن بعضهم نسبها للشاعر الفرنسي الكبير آرتر رامبو؛ لما وجد من تشابه كبير بينهما، وتؤكد الكاتبة الفرنسية فرانسواز دوأوبون، أن والد إيزابيل هو الشاعر المعروف رامبو، وليس الجنرال الروسي الأنف الذكر. ودليلها على ذلك إضافة إلى التشابه الكبير بين ملامحهما، أن اسم «إيزابيل» هو في الوقت نفسه اسم شقيقة رامبو الذي كان متعلقا بها إلى درجة كبيرة، كذلك الجملة الواردة في أحد كتبها.. «أنا أيضا سأموت مسلمة مثل أبي» حيث يقال إن رامبو بعد رحلة ضياعه في وادي النيل قد اعتنق الإسلام.

ولكن الأغلب أن إيزابيل هي ابنة ثروفيوموفسكي ولكن البيوغرافيين خاصة الفرنسيين منهم أطلقوا العنان لخيالهم واستنتاجاتهم وأحكامهم الجاهزة في كثير من الجوانب التي تمس حياة إيزابيل، لأسباب معلومة أهمها مواقف إيزابيل من القضية الجزائرية ومساندتها المستميتة للشعب الذي احتضنها



وأحبها وأحبتة. وقد آن الأوان لتسليط الأضواء على حياة هذه الشخصية الكاريزماتية وعلى أعمالها من طرف باحثين جزائريين، وإعادة الاعتبار لقدم جاد كان شاهداً على حقبة مهمة من تاريخ الجزائر.

## نشأتها

قرر فافا وناتالي بعد كبر إيزابيل الاستقرار بسويسرا رغبة في المحافظة على الأولاد وخوفاً من استتكار علاقتهما بروسيا التي لم تكن متفتحة في ذلك العهد.

وأقامت العائلة بميرين (Meyrin) بفيلا نوف (Villa Neuve) وقضت إيزابيل طفولتها برفقة الأولاد الأربعة لناتالي: نيكول، أوغستين، ناتالي وفولوديا. وسط هذه العائلة الرحالة ترعرعت إيزابيل.

في البدء، كان فافا، والدها من تولى تعليمها، لقد كان فوضوياً وكذلك أنشأ إيزابيل، لم يدخلها المدرسة ولكنه درسها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والكيمياء وقليلاً من الطب كما علمها اللغات التي يعرفها: اليونانية، التركية، اللاتينية، العربية، الألمانية، الإيطالية وطبعا الروسية، التي لم يزل يتكلم بها، أما ناتالي والأولاد وكأرستقراطيين حقيقيين، كانوا يتكلمون الفرنسية.

لم يقتصر ألكسندر على تعليم إيزابيل العلوم الإنسانية واللغوية فقط ولكنه كان يدرّبها على كل مناحي الحياة، فقد ابتاع لها حصانا وعلمها كيف تركب الخيل وتتعامل معها، ولعل دروس الفروسية هذه وغيرها هي التي ساعدتها على اختراق الصحراء

ورمالها والتوغل في دروبها الوعرة والتعامل مع طبيعتها القاسية.  
ثم التحقت فيما بعد بالمدرسة الثانوية.

وقد أدت فيلا نوف دورا مهما في انفتاح إيزابيل على ثقافات  
متعددة مختلفة، إذ كانت مقر التقاء الثقافات العالمية وكانت  
تسمع كل اللغات هناك، إضافة إلى المكتبة الكبيرة الموجودة  
بها والزاخرة بالمعاجم والكتب المختلفة اللغات والتي نهلت منها  
إيزابيل الكثير.

في هذا الوسط الفكري والمتعدد الثقافات، تفتحت إيزابيل  
وتفجرت فيها رغبة الاستكشاف، وراحت تملأ الدفاتر بعدد  
الملاحظات في التاريخ والجغرافيا والأدب... لقد كانت تطالع  
كثيرا.

لكن ذلك الغليان الثقافي وتلك اللقاءات بمنزل إيزابيل أثارت  
شكوك شرطة الأجانب؛ فناتالي وألكسندر لم يكونا إلا مجرد  
لاجئين روسيين في نظر السلطات وهذا ما أدى إلى تشتت  
العائلة شيئا فشيئا، إذ في سنة ١٨٨٣ غادر الابن الأكبر نيكولا  
منزل العائلة إلى روسيا.

كانت إيزابيل لأسباب نفسية ترتدي لباس إخوتها، ولكن الأمر  
راقها فأصبحت تحب تلك الأثواب الذكرية فراحت تتزين بهذه  
الألبسة الغريبة لتتسكع بها في شوارع جنيف.

في سنة ١٨٨٨ جاء دور الشقيق الآخر لإيزابيل لمغادرة المنزل  
والالتحاق بجيش الأجانب في الجزائر. لتسمع إيزابيل ربما لأول  
مرة أخبار الجزائر .

وبمجرد رحيل شقيقها راحت إيزابيل تتعلم اللغة العربية

والقبائلية، كذلك الرسم لتتمكن من إعداد الرسومات التخطيطية الضرورية للرحالة. ومنذ ذلك الوقت لم تعد تفكر إلا في السفر والكتابة، ولهذا طلبت من أخيها أن يدون بدقة يوميات حياته كجندي. حتى هي استعارت اسم نيكولا بودنسكي، وربطتها علاقة مراسلة بينها وبين أحد أصدقاء أخيها البحارة.

### رحلتها إلى شمال أفريقيا

وتجسدت أحلامها في المغامرة والسفر أولاً عن طريق الكتابة بمساعدة أخيها الذي كانت تتبادل معه الرسائل ويصف لها يومياته بالجزائر، وكان أول ظهور لها على الساحة الإعلامية سنة ١٨٩٥ حيث نشرت أولى قصصها «كانفرناليا رؤية غسقية» في المجلة الباريسية الجديدة - *La Nouvelle Revue parisienne* - وكذا «رؤية المغرب» التي تصف فيها الجزائر قبل رؤيتها لها.

في شهر مايو من سنة ١٨٩٧ غادرت إيزابيل برفقة والدتها جنيف باتجاه الجزائر، وعمرها عشرون سنة، واستقرا بمدينة عنابة بالحي العربي الذي اعتنقا فيه الإسلام هناك. لكن الأم أصيبت بمرض اضطر الزوج ثروفيموفسكي إلى الالتحاق بهما حيث وجد إيزابيل في وضعية نفسية متدهورة جدا وقد أصيبت بحالة من الجنون والصرع نتيجة لعدم مقدرتها على الوقوف بجوار أمها في محنتها الصحية. وفي الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من السنة نفسها توفيت ناتالي دي موردر عن عمر يناهز ٥٩ سنة. وقد أثار رخييل أمها كثيرا في معنوياتها، فسافرت

إلى تونس لقضاء فترة نقاهة على حساب السلطات الفرنسية، ولم تغير إيزابيل هناك من طبعها، ونمط حياتها، مرتدية لباس الرجال، كانت تنام بالمقاهي وتخالط بسطاء الناس سائرة أغوارهم، مستكشفة طرائق عيشتهم وتفكيرهم.

في العام ١٨٩٨ نشر الجهاز الإعلامي L'Athénée بعض قصصها ومقالاتها، ولكنه توقف عن النشر لها بعد نزاع وقع بينها وبين المدير بسبب قضية دريفيس وأفكار أخرى معادية للسامية، وبقيت إيزابيل بلا مصدر رزق. في هذه الفترة بدأت في كتابة «راحيل»، وهي رواية تدور أحداثها حول قصة حب بين طالب مسلم وفتاة يهودية، وهي الرواية التي رافقتها أينما ذهبت والتي لم تستطع إكمالها.

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٩٩ اضطرت إيزابيل للعودة إلى جنيف بعد مشاركتها في تمرد للجزائريين ضد المستعمر الفرنسي، والتي وصلتها قبل مدة قصيرة من انتحار شقيقها فولوديا أو فلاديمير ومكثت هناك بجانب أبيها فافا إلى أن توفي بمرض السرطان.

كان لفقدان والديها وأخيها أثر كبير في إيزابيل من الناحيتين النفسية والمادية، فقد كان لزاما عليها أن تعتمد على نفسها، فعادت إلى تونس، وهي تجهل كيف ستعيش هناك بالمال القليل الذي كان معها والذي بدأ يتناقص، ثم تركت تونس لتلتحق بأخيها أوغستين بمرسيليا، كي تجده هو الآخر معدما، يتخبط في صعوبات مالية جمّة، فزارت العديد من المدن الفرنسية باحثة عن مصدر مالي، وفي العاصمة الباريسية حاولت أن تحصل

على وظيفة كصحفية، ولكن دون جدوى لولا تعرفها هناك على الماركيزة مور التي مات زوجها بالجنوب التونسي في ظروف غامضة، أثناء إحدى الحملات العسكرية. كانت الماركيزة مور تريد معرفة حيثيات وظروف وفاة زوجها، ولما أعجبت بشخصيتها وجرأتها وذكائها كلفتها بمهمة التحري عن تلك الظروف ومعرفة الحقيقة الكاملة. وهكذا عادت إيزابيل إلى تونس برفقة أخيها أوغستين مرة أخرى في شهر يونيو ١٨٩٩. كانت تلك الرحلة مثمرة بالنسبة لها على الصعيد النفسي خاصة، واستطاعت أن تعرف أن زوج الماركيزة مات منتحرا.

ومن تونس تتابع إيزابيل رحلتها وحدها إلى الجزائر العاصمة، مرة أخرى، وذلك في العام ١٩٠٠، ومنها تسافر إلى تقرت ثم الوادي، الذي تعرفت فيه على سليمان أهني أحد الفرسان المسلمين الصبائحين.

وفي ٢٩ من شهر يناير العام ١٩٠١ نصب أبو أحمد رئيس الطريقة التيجانية التي تعادي الطريقة القادرية، كميناً لمجموعة من الخيالة، كانت إيزابيل ضمنها فجرحت جرحا كبيرا لكنها نجت من الموت بعد عملية جراحية ناجحة في مستشفى «العويد» حكم بعدها على الجاني بالأشغال الشاقة وعلى إيزابيل بعدم دخولها الجزائر. وأثناء محاكمة الجاني بمحكمة قسنطينة وقفت إيزابيل بجانب الرجل الذي اعتدى عليها بالسكين، طالبة الصفح عنه مما أثار سخط هيئة المحكمة الفرنسية.

وبسبب تلك الأحداث ونظرا إلى نمط حياة إيزابيل الغريب، ثارت بعض الشكوك حولها؛ فتاة في زي الرجال تسمى نفسها

سي محمود السعدي، تحمل جواز سفر روسيا، تعتق الإسلام ، تقطع الصحراء بمفردها، تسجل كل كبيرة وصغيرة أينما تمر، وتشر كل ذلك في العديد من الصحف والمجلات.

وفي مايو ١٩٠١ أجبرت إيزابيل على مغادرة الجزائر. وتوجهت إلى مرسيليا، باسم مستعار، متكرة في بدلة العمال الزرقاء، حتى تتمكن من السفر في الدرجة الرابعة الممنوعة على النساء.

في مرسيليا فكرت إيزابيل في العودة ثانية إلى الجزائر، ولم يكن أمامها من سبيل إلى ذلك إلا الزواج، لأنها كانت تدرك أن سبيل العودة إلى الجزائر هو الزواج من فرنسي واستطاعت أن تحصل من السلطات الفرنسية على رخصة الزواج المدني وتم ذلك بعد التحاق سليمان بها بمرسيليا في ١٧ أكتوبر ١٩٠١ وأصبح اسمها ليلي محمودة. وبذلك استطاعت العودة إلى فردوسها المفقود في الصحراء الجزائرية وسط الرمال الذهبية حيث يسطع النور من كل الجهات. وعادت إيزابيل برفقة زوجها سليمان إلى الجزائر في ١٤ يناير ١٩٠٢. وعن زواجها كتبت الكاتبة الفرنسية سيمون دوبفوار..

«عندما تزوجت إيزابيل التي انطلقت إلى الصحراء بزي الرجال على ظهر جوادها، لم تشعر بعدم الاحترام تجاه ذاتها. من الصعب القول لماذا اختارت إيزابيل هذا الزي. قد يكون ذلك قد راق لها أو اعتمده للدفاع عن نفسها. إن الزي الرجالي قياسا إلى الزي النسائي شيء مصطنع، لكنه قياسا إلى الزي النسائي أكثر راحة. جورج صاند مثلا، كانت مثل

إيزابيل ترتدي ملابس الرجال»...

بعد رجوعها إلى الجزائر، انطلقت تخترق الرمال في اهتمام خاص بالمياه من ينابيع ووديان وبالناس وعاداتهم ونمط حياتهم. وفي زيارة لها إلى الجزائر العاصمة، عرض عليها الناشر فيكتور باريكون (Victor Barrucand) العمل كمبعوث خاص لجريدة الأخبار، كما تعاونت أيضا في المجال الإعلامي مع لوس دنابين (Luce Denaben) مديرة مدرسة أوفروار للفتيات المسلمات بالجزائر. ولأول مرة يمكن القول إن إيرهاردت عاشت حقيقة من مصدر الصحافة وأصبح لها دخل منتظم، خاصة أن سليمان أيضا تحصل على منصب عمل كمترجم، وتقريت إيزابيل في تلك الفترة أيضا من جماعة من الكتاب أصدروا مجلة أدبية أسموها «فرنسا الكبرى» La Grande France.

شفوفة بالذهاب إلى عمق الأشياء، عاشقة للفضاءات الرحبة، ظمأى لاستكشاف المجهول دوما، كانت إيزابيل تتوغل أكثر فأكثر في الصحراء الشاسعة، وكانت رحلاتها تلك تنشر بانتظام في جريدة الأخبار حيث تتولى تحرير عمود ثابت بها. في كتاباتها الطافحة بالألوان القزحية والأجواء السحرية لم تتردد إيزابيل في الدفاع عن القضايا الإنسانية وفضح بعض ممارسات المستعمر الفرنسي الذي لم ترق له بعض مواقفها والذي ربما قام بإتلاف جزء من كتاباتها خاصة اليوميات الخامسة بعد العثور عليها تحت الأنقاض من طرف الجنرال ليوثي.

في خريف ١٩٠٣ (شهر سبتمبر) أرسلت إلى الجنوب  
الوهراني كمراسلة حرب - وتجدر الإشارة هنا إلى أنها كانت  
أول امرأة مراسلة حرب في نهاية القرن التاسع عشر - من  
طرف جريدة الأخبار، بعد موافقة الجنرال ليوثي لتغطية  
أحداث المواجهات بين المقاومة الجزائرية وجنود الاحتلال  
الفرنسي، وكذا الصراع الحدودي بين الجزائر والمغرب.  
وأقامت بعين الصفراء، لتلتقي بالماريشال ليوثي في ديسمبر  
١٩٠٣ ببني ونيف.

وفي مايو ١٩٠٤ عادت إيزابيل إلى عين الصفراء حيث  
استأجرت منزلا أقامت فيه هناك. في تلك الفترة كتبت كثيرا  
عدة مقالات عن المنطقة: عين الصفراء، فقيق، الزوية، بني  
ونيف، كما التقت هناك مسؤول زاوية الشيخ بوعمامة الواقعة  
بالحمام الفوقاني.

وفي صيف ١٩٠٤ سافرت إلى المغرب، متجهة إلى مدينة  
قنادسة من أجل الالتقاء بالمتصوفين، قاصدة زاوية سيدي  
إبراهيم ولد محمد. هذه الأخيرة التي تعتبر مزارا للعديد من  
الشخصيات الدينية وتنظم ملتقى سنويا يحضره متصوفون  
من كل أنحاء الشمال الأفريقي. إيزابيل كانت في السنتين  
الأخيرتين من حياتها قد اعتنقت الطريقة القادرية وأطلق  
عليها مريدو الطريقة اسم «باز الإسلام» ونظرا للاضطرابات  
التي كانت تسود المنطقة، قبض على إيزابيل من طرف رجال  
الزاوية وزج بها في السجن لمدة أسبوع بتهمة التجسس لحساب  
الفرنسيين، لكن أطلق سراحها فيما بعد مباشرة.



## وفاتها

كتبت إيزابيل إبرهاردت عن الموت:

«ربما يكمن كل السحر المؤلم في اليقين المطلق للموت. لو كانت الأشياء أزلية لبدت لنا غير جدية بالتعلق بها».

في ٢ أكتوبر ١٩٠٤، تدخل إيزابيل المستشفى العسكري بعين الصفراء للمعالجة من مرض الملاريا الذي كانت تعاني منه منذ مدة، وبقيت بالمستشفى لمدة أسبوعين. بعد خروجها كتبت لسليمان رسالة تطلب منه الالتحاق بها لمرافقتها، حيث استأجرت منزلاً من الطين في الجهة المنخفضة من القرية واستقرت به.

في ٢١ أكتوبر ١٩٠٤، بعد تغير مفاجئ في الأحوال الجوية، غمر المدينة الوادي، الذي كان جافاً بالكليّة، ودمر جزءاً من عين الصفراء. استطاع سليمان أن ينجو من هذه الكارثة الطبيعية، غير أن إيزابيل وقد أضعفها المرض لم تستطع الهروب ووجدت ميتة تحت أنقاض منزلها، مرتدية لباس الفرسان العرب. ودفنت على الطريقة بمقبرة سيدي بوجمعة الإسلامية.

بعد الحادثة أرغم الجنرال ليوثي جنوده على البحث عن مخطوطاتها، وتم العثور على مخطوطها المعنون بـ «الجنوب الوهراني» الذي نشره باريكون فيما بعد، سنة ١٩٠٥ تحت عنوان «تحت ظلال الإسلام الدافئة» (Dans l'ombre chaude de l'Islam).

وحتى الآن وبعد مرور أكثر من قرن على وفاتها، تبقى إيزابيل شخصية مثار إعجاب ومازال الكتاب ينشرون كتباً حول أعمالها وشخصيتها الأسطورية المتميزة.

## أعمالها

تركت إيزابيل بعد وفاتها عدة أعمال مخطوطة وأخرى منشورة في الجرائد والمجلات، وتعتبر أعمالها وثائق شاهدة على العصر وعلى فترة مهمة من تاريخ الجزائر وقد نشرت كما يلي:

### كتابات على الرمل Ecrits sur le sable

من جزأين، عرض وتعليق ماري أوديل دولا Marie-Odile Delacour كور وجون ريني ايلو Jean-René Huleu وكتبت المقدمة إدموند شارل رو d'Edmonde Charles-Roux

باريس، غراسي ١٩٨٨-١٩٩٠

الجزء الأول:

Récits, notes et ملاحظات ويوميات و  
journaliers

يحتوي على ملاحظات في الرحلات، كتاباتها الأوتوبوغرافية الحميمة الشخصية

تسكعات Vagabondages : مجموعة من ذكريات رحلاتها في الصحراء التونسية. نشر في المجلات في حياتها ثم أصدره بعد وفاتها صديقها فيكتور باريكون

عودة إلى الجنوب Retour au sud .

يخص الجزائر وبالضبط الجنوب الوهراني وهو عبارة عن ملاحظات في الطريق

كتبت الجزء الأول منه حين كانت مراسلة حرب على الحدود  
المغربية الجزائرية سنة ١٩٠٢.

أما الجزء الثاني فكتب خلال إقامة أخرى بالجنوب الوهراني  
وقد فاحت بعطر البعد الصوفي مع وصف للقنادسة قلعة  
الصحراء الدينية. بعد موتها نشر فيكتور باروكون بعد تحويل  
في «ملاحظات في الطريق» و«في ظل الإسلام الدافئ»

## اليوميات Les Journaliers

هي بمنزلة دفتر شخصي وأدبي كتبه خلال الأربع سنوات  
الأخيرة من حياتها ويبرز ذوقها الأدبي إعجابها بببير لوتي والإخوة  
جونكور، وعشقها للمطلق، وميلها للصوفي، وحالات الإحساس  
بالوحدة، وحزنها لموت الأقرباء، وحبها لزوجها سليمان، ومحاولة  
اغتيالها الخ....

## الجزء الثاني

### قصص وروايات

وقد خصص للكتابات القصصية ويضم:

المرآة - رؤيا المغرب - انفرناليا - الجحيمية - النقيب -  
المغربي - الزاوية - أم زهار - تحت النير - الساحر - وصول  
المحتل - تسعديت - ياسمينة - ليالي رمضان - الفلاح - عين  
جابدود - الدرويشة - المداح - نقيب اللوز - عصر العدم -  
الفوقارة - المتشرد - جنة الماء - مريمة - مطورني - الليل - في  
الفجر - السترة الزرقاء - المشعوز - دكتوراه - العلماء - رواية  
التركي - الفوضوي - أسداف أفريقية - المخدوعون - مآثر

الأهالي- أشواق - المجوسي - المزخرف المحترم - اليد -  
في الكتيب- الصديق - صورة أولاد نايل - تاعليت - مجرم-  
الخوني- على الهامش - شحاذ - زهور وياسمينة- في درب  
الله - تخييم - حداد - أفراح سوداء - سيراس - يهودا-  
المتسكح- ايوستراث.

كُتبت إيزابيل حوالى ستين قصة، نُشر معظمها في حياتها  
بالصحافة الجزائرية على شكل حلقات

الأخبار - البرقية الجزائرية la Dépêche Algérienne

كتابات حميمة: رسائل إلى أحب ثلاثة رجال

Ecrits intimes: lettres aux trois hommes les  
plus aimés

ونشر بتعليق وتقديم ماري أوديل دولا كور Marie-Odile

Delacour وجون ريني ايلو Jean-René Huleu

بالاشتراك مع فائزة عبد الوهاب. بياريس، بايو، ١٩٩١

وهو عبارة عن مراسلات مع شقيقها أوغستين، وصديقها  
وأمين سرها علي عبد الوهاب وزوجها سليمان. هذه المراسلات  
امتدت على مدار سبع سنوات وتبرز شخصيتها المعقدة والتميزة.

**بيبليوغرافيا**

Trimardeur (Roman) - Éditions Fasquelle, Paris, 1922

Ecrits sur le sable (t. 1) (Récits) - GRASSET  
ET FASQUELLE, 1988

Ecrits sur le sable (t. 2) (Récits) - GRASSET  
ET FASQUELLE, 1990

Lettres et Journaliers (Lettres) - BABEL (AC-  
TES SUD), 1992

Dans l'ombre chaude de l'Islam (Récits) - AC-  
TES SUD, 1996

Yasmina et autres nouvelles algériennes (Nou-  
velles) - LIANA LEVI, 1998

NOTES DE ROUTE. Maroc - Algérie - Tunisie  
(Récits) - BABEL (ACTES SUD), 1998

Ecrits intimes. Lettres aux trois hommes les  
plus aimés (Lettres) - Payot, 1998

Un amour d'Algérie (Nouvelles) - Éditions Jo-  
elle Losfeld, Paris, 1998

Ecrits intimes (Correspondance) - Éditions Jo-  
elle Losfeld, Paris, 1998

L'écriture de sable (Récits) - Editions Barzakh,  
Alger, 2002

Au pays des sables (Nouvelles) - Éditions Jo-  
elle Losfeld, Paris 2002

Sud Oranais (Journal) - Éditions Joelle Losfeld,  
Paris 2003

## المراجع

هذه المعلومات مستقاة من العديد من المقالات والمواقع على الشبكة العنكبوتية حول الكاتبة والرحالة إيزابيل إبرهاردت أهمها:

<http://switzerland.isyours.com/s/index.html>

<http://ns35.hosteur.com/~eloued/index.htm>

<http://www.memo.fr/index.htm>

[http://dzlit.free.fr/listelivre.php?letr=\\_&tit=eberhardt&Ex%E9ctit=Rechercher](http://dzlit.free.fr/listelivre.php?letr=_&tit=eberhardt&Ex%E9ctit=Rechercher)

<http://www.geneve.ch/fao/2002/20020902.asp>

<http://www.digbib.uio.no/roman/Art/Rf-16-02-2/fra/Barstad.pdf>

<http://mapage.noos.fr/sacados/lectures/lectures52.htm>

<http://www.rosadoc.be/site/mainfr/spotfrans.htm>

## الغريمة

في أحد الصباحات، توقفت الأمطار المشجية فجأة، وأطلت الشمس في سماء صافية صراح، ذات زرقة بالغة، وقد اغتسلت من أبخرة الشتاء الباهتة.

في الحديقة المنزوية كانت شجرة الأرجوان الكبيرة تمد أذرعها الموسوقة بالأزهار الوردية الصينية. إلى اليمين يمتد الانعطاف البادخ لروابي مصطفى وينأى في شفافية لامتناهية.

كانت هناك شذرات ذهبية على الواجهات البيضاء للفيلات. هناك بعيدا تبسط أجنحة الزوارق النابوليثانية الشاحبة على موج الخليج الهادئ.

تمر نسيمات مفعمة بالرقعة في الهواء الدافئ. تقشعر الأشياء فجأة فتستفيق في قلب المتشرد أوهام الانتظار، والاستقرار والسعادة.

ينعزل مع تلك التي أحبها قلبه في المنزل الصغير حيث تمر الساعات بلا إحساس وفي وهن سائغ، وراء المشربية ذات الخشب المنحوت، وراء الستائر زاوية الألوان.

في الجهة المقابلة كان الديكور الكبير للجزائر وهو يدعوها إلى احتضار لذيد.

لماذا الرحيل، لماذا البحث عن السعادة في مكان آخر، والمتشرد يعثر عليها هنا؟ لا حد لها في ثمر البرقوق المتغير للحببية حيث يفوص بنظراته طويلا، طويلا إلى أن تسحق كآبة الشهوة القسوى رويهما؟

لماذا البحث عن فضاء حين تفتح خلوتهما الضيقة على  
الآفاق الفسيحة، حين يحسان أن الكون فيهما يختزل؟  
كان كل شيء عدا حبه يبتعد... يرتد إلى موجات تنأى.  
يتخلى عن حلمه الداعي للفخر بالوحدة، يتكرر لديار  
الصدف والمخاطرة والطريق الصديقة، تلك الخيلة المستبدة،  
المنتشية بالشمس، تلك التي طالما أخذها وأحبها.  
استسلم المتشرد بقلب مضطرب ساعات وأياما لهددة  
إيقاعات النشوة التي كانت تخيل إليه أزلية.  
كانت الحياة والأشياء تبدو في مخيلته جميلة، فكر أيضا  
أن وضعه الآن قد صار أحسن، وقد غدا أكثر رقة في قوة  
سلامة جسمه المنكسر، وطاقة إرادته الداوية.  
...في الماضي، أيام المنفى وفي خضم السأم الساحق  
للمعيشة الحضرية في المدينة، كان قلب المتشرد يعتمر وجدا  
لذكريات فتنة المشهد الساحر للشمس على السهل الطليق.  
والآن، وهو يفترش سريرا دافئا في شعاع من أشعة الشمس  
الذي يتسلل من النافذة المشرعة، يمكنه أن يستحضر وبصوت  
خافت جدا، في أذن الحبيبة رؤى وطن الأحلام، ممزوجة  
فقط بالكآبة المبهمة الرقيقة كأنها عطر الأشياء الميتة.  
لم يعد المتشرد يأسف على أي شيء. إنه لا يرغب إلا في  
تلك اللحظات السرمدية للذي كان.  
أسدل الليل الدافئ ستائره على الحداثق. صمت يخيم، وتهدد  
عميقة تصاعد، تهدد البحر الذي ينام هناك في المنخفض  
السحيق تحت النجوم. تهدد الأرض المفعمة بحرارة الحب.



نيران تتوهج كاللآلئ على قمم الروابي الفضة. أخرى  
تتأثرت على الساحل كأنها حبات مسبحة ذهبية، وأخرى  
تشتعل كأنها عيون حائرة في مخمل ظل الأشجار الباسقة .  
خرج المتشرد وحبيبته إلى الطريق المقفرة إلا منهما، وقد  
اشتبكت أيديهما وراحا يبتسمان في الليل.  
لم يتكلما، ففي الصمت يتفاهمان أكثر.  
وصعدا المنحدر الساحلي ببطء، بينما كان القمر ينبعث  
من بين أشجار الأوكالبتوس على أولى تضاريس متيجة  
المنخفضة.

وجلسا على صخرة.

ينبعث بريق أزرق على الريف الليلي، وتهتز أرياش البلشون  
الفضية على الأغصان الرطبة.

تفرس المتشرد في الطريق طويلا، الطريق الفسيحة  
البيضاء المسافرة بعيدا، في المدى.

طريق الجنوب

واهتز عالم من الذكريات في روح المتشرد التي استيقظت  
فجأة.

أغمض عينيه ليطرد تلك الرؤى، وتشنجت يده في يد  
الحبيبة وهو يشدها

لكنه، رغما عنه، يفتح عينيه.

عشقه القديم للخليفة المستبدة المنتشية بالشمس يعاوده  
من جديد، كان لها بكل وجدانه.

وهو ينهض، ألقى نظرة طويلة إلى الطريق للمرة الأخيرة:

لقد كان موعودا بها .

... دخلا ظل حديقتهما المفعم بالحياة وخلدا للنوم في  
صمت تحت شجرة الكافور الباسقة .

فوق رأسيهما كانت شجرة الأرجوان تمد أذرعها الموسوقة  
الملاى بأزهار وردية تبدو كأنها بنفسجية، في الليل الأزرق .  
ينظر المتشرد إلى حبيبته الجالسة قربه .

لم تعد سوى رؤية ضبابية مائعة وستنتشع في ضياء القمر .  
كانت صورة الحبيبة باهتة، بعيدا هناك بالكاد تتجلي .  
حينئذ أدرك المتشرد الذي لم يزل قلبه ينبض بحبها أنه  
سيرحل في الفجر، وانقبض قلبه .

أمسك زهرة كبيرة من الكافور العاطر وقبلها كي يخفي  
شهقة .

وراء الخط الأسود للأفق، كانت الشمس الحمراء قد  
تلوثت في بحر من الدم .

وبسرعة انطفأ النهار، وغرقت الصحراء الصخرية في  
شفافية سوداء .

واشتعلت بعض النيران في ركن من السهل .

بدو رحالة مسلحون بالبنادق يهزون ستائرهم الطويلة  
البيضاء حول اللهب المضيء .  
يطلق حصان مشكول صهيله .

رجل يجلس القرفصاء، رأسه إلى الورا، مغمض العينين  
كما في حلم يدندن أغنية شعبية قديمة كئيبة حيث تتناوب  
كلمة حب مع كلمة موت .

ثم صمت كل شيء في المدى الشاسع الأخرس.  
نائما كان المتشرد، قرب نار نصف مطفأة وقد تسربل  
ببرنوسه.

متكئا برأسه على ذراعاه، منهك القوى، استسلم إلى  
السكينة اللامتناهية في أن ينام وحيدا مجهولا بين أناس  
بسطاء وأجلاف، مجهولا حتى من الأرض، الأرض الطيبة  
المهددة، في مكان مجهول من الصحراء وحيث لا يعود أبدا.



## نحيب اللوز

إلى ماكسيم نواري، رسام الأفاق الملتهبة وشجر اللوز المنتحب.  
تتام بوسعادة، الملكة الضاربة متسريلة بحدائقها الداكنة  
ومحروسة برواييها البنفسجية؛ لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة  
للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية. وقد  
انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة،  
أشجار اللوز تذرّف دموعها البيضاء تحت مداعبة الريح... وأريجها  
الزكي يحلق في دفاء الجو الرطب ناثرًا كأبة مبهمة فاتتة...

إنه الربيع وتحت مظاهره الذبول، ورقة الأشياء الشجية.  
تتام الحياة كأمينة عنيفة طاغية بالحب والشوق، يتدفق النسغ  
الغامر من ينابيع الأرض الخفية، كي تولد في نشوة مولد جديد.  
يخيم صمت مدائن الجنوب على بوسعادة، في المدينة العربية  
يندر المارة، غير أنه في الوادي تتجول أحيانًا كوكبة من النساء  
والفتيات في أثواب ساطعة.

ملاحف بنفسجية، زمردية، وردية ناصعة، صفراء ليمونية،  
حمراء رمانية، زرقاء سماوية، برتقالية، حمراء أو بيضاء، مزركشة  
بالأزهار والأنجم المتعددة الألوان... رؤوس مغطاة بالبناء الثقيل  
للتسريحة الصحراوية والمكونة من ضفائر من أياد فضية أو  
ذهبية، وسليسلات، ومرايا صغيرة، وتمائم، أو متوجة بأكاليل  
شعرية مزينة بأرياش سوداء. كل هذا يمر، متألقًا في الشمس،  
تتشكل المجموعات وتبديل في شكل قوس قزح متغير باستمرار،  
كأنها فرّق فراشات ساحرة.

هي مجموعات من الرجال قد تذررت وتقلنست بالأبيض، ذات وجوه علاها وقار واسمرار، تخرج في صمت من الشوارع المفراة.

منذ سنوات لم يبرحا مكانيهما أمام كوخ الطين المجفف تحت الشمس الصديقة، من الصباح حتى المساء. كانت العجوزان ترتديان ملحفتين داكنتي الحمرة يشكل صوفهما الكث ثايا ثقيلة حول جسديهما الموميائين.

والتسريحة وفق عادات البلد، بضفائر صوف أحمر وضفائر شعر شهباء مخضبة بحناء برتقالية نير لونها، وفي أذنيهما المتعبتين حلقات ثقيلة، بسلسلات فضية مشبوكة في المناديل الحريرية للتسريحة. وعلى الصدر الهابط قلائد من قطع الذهب والعجائن المعطرة المجففة، وصفائح ثقيلة من الفضة المرصعة؛ ومع كل حركة من حركاتها النادرة والبطيئة ترن كل هذه الحلبي والأساور والخلاخليل.

كمعبودتين قديمتين منسيتين بلا حراك، تنظران من خلال دخان سجائرهما الأزرق إلى الرجال وهم يمرون من دون التفات إليهما، الفرسان، مواكب الزفاف، قوافل الجمال والبغال، والشيوخ العجز، عشاق الأمس البعيد... كل حركة هذه الحياة لم تعد تعنيهما.

عيونهما الذابلة، زاد في اتساعها إفراط في الكحل، خدودهما متوردة برغم التجاعيد، شفاهما محمرة، كل هذه الأبهة تضي ما يشبه الظل الكئيب على وجهيهما الشائخين الأدردين النحيلين.

... حين كانتا في عز شبابهما، سعدية ذات الوجه الدقيق المسفع والأنف المعقوف، وحبيبة البيضاء النحيفة، كانتا فتنة ليالي بوسعادة وأيامها وسحر البدو.

والآن، ثريتان، وقد تزينا بثمار شراة الأيام الغابرة، هاهما تحدقان في أمن وسلام في ديكور المدينة الكبيرة الزاهر حيث يحتضن التل الصحراء، وحيث تلتقي الأجناس الأفريقية لتشكل فسيفساء ممتزجة. وتبتسمان... ربما لهذه الحياة التي تستمر رتيبة ثابتة ودونهما، وربما لذكرياتهما... من يدري؟

وحين ينبعث صوت المؤذن الوثيد الأنيسي مناديا المؤمنين تهض الصديقتان لتؤديا الصلاة على سجادة طاهرة، وقد أحدثتا صليلا كبيرا بحليهما. ثم تعودان إلى مكانهما وأحلامهما، وكأنهما تنتظران أحدا لا يجيء... نادرا ما تتبادلان بعض الكلمات.

انظري يا سعدية هناك. سي شعلال، القاضي... أوتذكرين زمان.. كان خليلا لي، كم كان فارسا أنيقا! كيف كان يمتطي بمهارة فرسه السوداء! كيف كان كريما، على الرغم من أنه لما يزل موظفا بسيطا. والآن إنه شيخ هرم... يحتاج خادمين لمساعدته على ركوب بغلته الحكيمة مثله، والنساء لا يتجرأن على النظر في وجهه... هو ذاك الذي كنت أشبع منه العينين قبلًا! نعم... وسي علي، الملازم الأول، الذي قدم مع سي شعلال فارسا بسيطا في الجيش الفرنسي والذي كم أحببته؟ هل تذكرينه؟ هو أيضا كان فارسا مقداما وشابا ظريفا... كم بكيت حين غادر إلى المدينة! هو، كان يضحك، كان سعيدا، تم تعيينه

عريفا للتو، وها هو ينساني... هكذا هم الرجال... لقد توفي  
العام الماضي... رحمه الله!

يحدث أحيانا أن نترنما ببعض أغاني الحب التي ترن غريبة  
في فميهما اللذين غدا الصوت ينبعث منهما مرتجفا، مخنوقا  
تقريبا.

هكذا تعيشان، غير مكررتين بأي شيء، وسط أشباح الأيام  
الخوالي، منتظرتين ساعة الرحيل.

... تصعد الشمس بطيئة وراء الجبال المغطاة بضباب خفيف.  
يمر وميض أرجواني في وجه الأشياء، كما ستار حياء. والأشعة  
الطالعة تزرع أرياشا من نار على قمم النخيل وتبدو قباب  
النسائك الفضية ذهبية. وللحظة تتوهج المدينة القديمة الضارية  
وكان لهبا في الأعماق أشعلها، بينما تظل الحدائق، سرير  
الوادي، والممرات الضيقة في الظل غامضة كأنها مترعة بدخان  
أزرق يذيب الأشكال ويصقل الزوايا، فاتحا أقاصا من خفايا  
بين الجدران الصغيرة المنخفضة وجذوع النخل المرصعة... على  
ضفة النهر، يضيء بريق النهار المورد لونا ورديا ناصعا على  
عبرات اللوز الحالم المتناثرة، المجمدة في شكل ثلج بريء.

أمام منزل الصديقتين كانت الريح الباردة قد أنهت بعثرة  
رماد الموقد المطفأ، لتأخذه في شكل إعصار صغير مزرورق.  
سعدية وحبيبة ليستا في مكانهما المعهود.

في الداخل يتصاعد أنين أجش حيننا، وثاقب حيننا آخر حول  
الحصير حيث ترقد حبيبة، ككفافة قماش حمراء لا شكل لها،  
على الجمود الهامد الذي منه تتلألأ الحلي في مظهر غريب،



تتوح سعدية وعاشقات أخريات من الزمان الذي مضى وهن  
يمزقن وجوههن بضربات قاسية من أظفارهن. وصليل الحلي  
يرافق في إيقاع منتظم عويل الباقيات.

في الفجر، ولأنها طاعنة في السن أكثر من اللزوم ومنهوكه  
أكثر من اللزوم، ماتت حبيبة من دون احتضار، وفي هدوء جليل  
لأن نابض الحياة قد انكسر في أعماقها شيئاً فشيئاً.

... يغسل الجسد في ماء غزير، ويلف في كفن أبيض، يرش  
بالطيب وينوم، الوجه مولى للشرق. في منتصف النهار يأتي  
رجال ويأخذون حبيبة إلى إحدى المقابر غير المسيجة حيث  
يدحرج رمل الصحراء طوعاً موجه السرمدي على الأحجار  
الرمادية الصغيرة المتعددة.

انتهى كل شيء... وسعدية وحيدة منذ الآن قد أخذت مكانها.  
تتم زفرات الرمق القليل الذي تبقى من حياتها مع الدخان الأزرق  
لسيجارتها الأبدية، بينما كانت على ضفاف النهر المشرق، وفي  
ظل الحدائق شجرات اللوز تتم ذرف دموعها البيضاء في بسمة  
ربيعية حزينة...



## ياسمينة

كانت قد ترعرعت في وسط جنائزي، حيث في ظل الإقفار المطوق تطفو الروح الغريبة للعهود الخوالي.

هنا انقضت طفولتها، على الأطلال الرمادية، بين الانقراض وغبار ماض تجهل عنه كل شيء.

ومن العظمة نفسها لهذه البقاع، تلتقت ما يشبه الفائض من القدرية والحلم، غريبة، مكتئبة بين كل فتيات جنسها: هكذا كانت ياسمينة البدوية.

تقع أكواخ قريتها بجانب آثار تيمقاد الرومانية، وسط سهل كبير، تآثرت بين جنباته صخور مجهولة بلا اسم ولا عمر، حطام تآثر وسط حقول البلان الشائك ذي السيماء الشرسة، النبات العشبي الوحيد الذي استطاع أن يقاوم الحرارة اللفوح لفصول الصيف المستعرة. هناك من نبات البلان الشائك كل الأحجام والألوان: الضخم ذو الأزهار الكبيرة الزرقاء، الحريرية وبين الأشواك الحادة الطويلة، أشواك أصفر قليلا، في شكل نجيمات ذهبية... كلها زاحفة، وأخيرا الأشواك ذات الأزهار الوردية الصغيرة الشاحبة. هنا وهناك، دغل ناحل من شجر العناب أو مصطك تصهب بسبب الشمس.

قوس نصر لم يزل واقفا، ينفث في شكل منحني جسور على الأفق المتأرجح. أعمدة عملاقة، بعضها مكلل بتيجانه، والبعض الآخر محطم، فيلق من الأعمدة متجهة صوب السماء، وكأنما هي في ثورة غضوب عديمة الجدوى ضد الموت المحتوم...

مدرج بمقاعد نظفت وأزيل ركامها حديثاً، ساحة صامته، دروب مهجورة، هيكل كلي لمدينة كبيرة منتهية، كل المجد المظفر للقياصرة المهزومين من طرف الزمن ومن طرف الحنايا الفيورة لأرض أفريقيا هذه التي تفترس في تأن ولكن في ثبات كل الحضارات الأجنبية والمعادية لروحها ...

منذ الفجر، عندما، هناك بعيداً، يرسل جبل الأوراس ومضاته الشفيفة، تخرج ياسمينة من كوخها المتواضع متجهة صوب السهل تدفع قطيعها الصغير من الماعز الأسود والغنم الضارب إلى الرمادي لونه.

من الاعتيادي أن تأخذه إلى وهد متعرج لواد بعيد عن الدوار. هناك يتجمع رعاة صفار القبيلة. غير أن ياسمينة كانت تفضل العزلة، فلا تشارك الأطفال الآخرين ألعابهم.

كانت تقضي كل أيامها، في الصمت المتوعد للسهل بلا هم، بلا تفكير، متتبعه أحلاماً غامضة، غير محددة، يتعذر التعبير عنها بكل اللغات الإنسانية.

أحياناً، كي ترفه عن نفسها تلجأ إلى قطف بعض الزهيرات الغربية التي أبقث عليها الشمس في عمق الوادي الناشف، وهي تدندن أناشيد عربية.

والد ياسمينة، الحاج سالم، أصبح عجوزاً مقعداً، أمها حبيبة وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها لم تعد إلا مجرد مومياء هرمة، بسبب اعتكافها على الأعمال الشاقة للكوخ وحقل الشعير الصغير.

لياسمينة أخوان يكبرانها سناً، متطوعان كلاهما في فرقة

الصباثحين، وقد أرسلوا كلاهما بعيدا جدا، في الصحراء. أختها الكبرى، فاطمة، متزوجة وتقتن بالدوار الرئيسي لأولاد مريم. فلم يبق في الكوخ غير الأطفال الصغار وياسمينه، أكبرهم والتي تبلغ من العمر أربعة عشر ربيعا.

هكذا، من فجر ساطع في أصيل كئيب، كانت الصغيرة ياسمينه ترقب مرور ربيع آخر، لا يختلف كثيرا عن سابقه، والتي اختلطت بذاكرتها.

في أحد المساءات، في مستهل فصل الصيف، كانت ياسمينه عائدة بقطيعها، صاعدة باتجاه تيمقاد المضيئة بآخر أشعة الشمس عند غروبها، حتى السهل كان يشع أيضا، في ذرورية وردية وفي سحنة غاية في الرقة... وياسمينه عائدة وهي تردد أغنية صحراوية حزينة، كانت قد تعلمتها من أخيها سليمان الذي عاد في إجازة، هذه سنة مرت، أغنية تحبها كثيرا:

يا بنت قسنطينة

واش جيت هنا عملي

أنت يا اللي ماراك بنت بلادي

أنت اللي ما خلقت باش تعيشي بين الكثبان

يا بنت قسنطينة

جيت واسلبت فؤادي

واديتيه معاك

حلفت بالله العالي تعودي

لكن كي ترجعي لبلاد الصحراء

كي ترجعي للوادي

راكي ما تلقانيش في دار الورود

حوسي علي في دار الخلود

ورويدا رويدا تحلق الأغنية الحزينة الشاكية في الفضاء  
اللامحدود... ورويدا رويدا تخبو الشمس الساحرة على السهل.  
كانت هادئة للغاية، الروح الصغيرة الوحيدة الساذجة  
لياسمينة... هادئة وعذبة كتلك البحيرات الصغيرة الصافية  
والتي تتركها الأمطار للربيع للحظة في المروج الأفريقية السريعة  
الزوال، وحيث لا شيء ينعكس غير اللازورد السرمدى لسماء  
بلا سحب...

حين رجعت ياسمينة إلى الدار، أخبرتها أمها بأنه سيتم  
تزويجها إلى محمد لعور، نادل بياقة.

بكت ياسمينة أولاً لأن محمد لعور كان أعور وذميماً، وثانياً  
لأن هذا الزواج جاء مفاجئاً ولم يكن في الحساب.  
ثم هدأت وابتسمت، لأن ذلك ما كتب لها. ومرت الأيام؛  
لم تعد ياسمينة تذهب إلى المرعى. كانت تخطط بيديها الصغيرتين  
غير البارعتين جهاز العروس المتواضع لخطيبة بدوية.  
لم تفكر أي واحدة من نساء الدوار في أن تسألها ما إذا كانت  
سعيدة بهذه الزيجة. أعطيت للعور كما كان يمكن أن تعطى لأي  
مسلم آخر. هكذا كان نظام الأشياء، لم يكن هناك أي داع لأن  
تكون سعيدة فوق العادة ولا أن تكون متألماً كذلك.

بل كانت ياسمينة تعلم أن قدرها ربما سيكون أحسن بكثير  
من قدر الأخريات من نساء قبيلتها، إذ إنها ستقطن المدينة، ولن  
يكون لها إلا الاعتناء بأسرتها وتربية أولادها مثل المغاربة.

وحدهم هم الأطفال الذين كانوا يغيظونها أحيانا رافعين أصواتهم: «مرت لعور! - زوجة الأعور!»؛ ولهذا كانت تتجنب الذهاب عند هبوط الليل، إلى الوادي قصد جلب الماء مع بقية النساء. هناك بالفعل نافورة في ساحة برج التفتيش، لكن الحارس الرومي موظف من طرف الفنون الجميلة لم يكن يسمح لأفراد القبيلة بغرف المياه الصافية العذبة لتلك النافورة. وعليه كانوا مرغمين على الشرب من المياه المالحة للوادي والتي كانت صبح مساء تتداس من طرف قطعان الماشية. ومن هنا جاء المظهر المرضي لأفراد القبيلة المصابين دوما بأنواع الحمى الخبيثة.

وجاء الأعور في أحد الأيام يخبر أبا ياسمينه بأنه لن يتمكن قبل الخريف من إتمام مصاريف الزواج ودفع مهر الفتاة.

كانت ياسمينه قد انتهت من إعداد جهاز عرسها، وكان أخوها الصغير أحمد، الذي خلفها في المرعى، قد سقط طريح الفراش، مما جعلها تستعيد وظيفتها كراعية، وتستعيد رحلاتها الطويلة عبر السهول.

حيث كانت تلاحق أحلامها الغامضة؛ أحلام عذراء بدائية، والتي لم يغير اقتراب الزواج قدر قلامه في سلوكها.

لم تكن تتمنى أو تبتغي شيئا. كانت في حالة لاشعور، وإذن سعيدة.

وكان وقتذاك بباتنة ملازم أول شاب، منتدب في المكتب العربي، قادم حديثا من فرنسا، كان قد طلب المجيء إلى الجزائر، لأنه سئم حياة الثكنة التي قضاها مدة سنتين، بسان سير. كان ذا روح مغامرة وحاملة.

وبسرعة أصبح صيادا بياتة، وله رحلات طويلة عبر الريف  
الجزائري اللاذع والذي سحره سحرا استثنائيا منذ البداية.  
وحيدا كان ينطلق فجر كل يوم أحد، مقتنيا بمغامرة طرق  
السهل المتحفرة وأحيانا دروب الجبل الضيقة الشاقة.  
وفي أحد الأيام، وقد أنهكه حر الهاجرة، دفع بفرسه نحو  
الوادي الضيق الطويل المتوحش حيث كانت ياسمينة ترعى  
قطيعها.

جالسة على حجر، تحت ظل صخرة صهباء، حيث تنمو  
أشجار العرعر الفواحة، كانت ياسمينة في سهو تلعب بعساليج  
خضراء وتندنن أغنية بدوية حزينة حيث كما في الحياة يتاخم  
الحب الموت.

كان الضابط مرهقا وقد راقته شعيرة المكان المتوحشة.  
وحين استقر في خط الظل كي يحمي فرسه من حر الشمس،  
اقترب من ياسمينة وهو لا يعرف ولو كلمة بالعربية قال لها  
بالفرنسية:

أويوجد ماء، ها هنا؟

ودون أن تجيب، نهضت ياسمينة ومضت، جزعة، فارة تقريبا.  
لم أنت خائفة مني؟ لن أمسك بسوء، قال وقد استأنس بهذا  
اللقاء.

ولكنها فرت من عدو عرقها المهزوم وابتعدت.  
وتتبعها الضابط طويلا بنظراته.  
بدت له ياسمينة رشيقة وهيفاء تحت أسماها الزرقاء،  
بمحيها المسمر ذي الصفاء البيضاء، حيث تتلألأ في



إبهام خفي العيون الكبيرة السوداء للجنس البربري، بتعبيرها الدكين الحزين، وهي تناقض نافية الانعطاف الشبقي والطفولي في آن واحد للشفاة المخضبة بلون الدم، والسميكة قليلا. تحيط بهذا الوجه الفاتن حلقتان حديدتان ثقيلتان، علقتا في شحمة الأذنين الواضحتين. وعلى الجبين، في الوسط بالضبط، وشم الصليب البربري خط بالأزرق، رمز غير معروف، وغير معلل عند هؤلاء الأقوام أهل هذه الأرض والذين لم يعتقدوا المسيحية، والذين دخلهم الإسلام وهم في كامل وحشيتهم ووشيتهم ليغمرهم بنوره الكبير المترع بالإيمان والأمل.

على رأسها ذي الشعر الثقيل الصوفي الشديد السواد، كانت ياسمينية تضع منديلا بسيطا أحمر مطويا في شكل شريط منفرج مستو.

كل شيء فيها كان مطبوعا بسحر يكاد يكون صوفيا، والذي لم يستطع الملازم الأول جاك أن يعرف تفسيراً لطبيعته. مكث طويلا هناك، جالسا على الصخرة التي غادرتها ياسمينية، كان يفكر في ياسمينية وفي كل جنسها.

أفريقيا هذه التي جاءها متطوعا بدت له مرة أخرى كعالم خيالي تقريبا، مجهولة تماما، وغاص به الشعب العربي بكل مظاهر طبعه الخارجية في ذهول عميق. إذ إن عدم اختلاطه شبه الكلي برفقائه، جعله يجهل إعادة الأكليشيئات السائدة في الجزائر والتي كانت تحمل وبوضوح العدائية قبليا لكل ما هو عربي وإسلامي.

لم يزل تحت وقع الفرحة الكبرى، ونشوة القdom الحادة،  
وبشهوانية استسلم لها.

ينحدر جاك من عائلة نبيلة أردانية، تربي على صرامة معهد  
ديني في الريف أكسبته عبر سنواته كسان سيرري روح جبلي،  
منغلق نسبيا على «روح العصر»، ميال للتمرد والتهكم، شكاك،  
لا يرجع عن رأيه، وهذا ما يأخذه بسرعة إلى كل التداعيات  
المعنوية.

إذن كان يعرف كيف يرى ويفسر الأشياء بنفسه، وينحاز  
بصدق إلى انطباعاته الخاصة.

حول الجزائر، لم يكن يعرف إلا الملحمة الرائعة للاجتياح  
والدفاع، البطولة المبذولة، باستمرار من هنا وهناك على مدار  
ثلاثين سنة.

غير أنه كان ذكيا وغير ميال للبوح والصراحة مما أكسبه  
قدرة على تحليل أحاسيسه، وترتيب أفكاره.

هكذا، وفي يوم الأحد التالي، وهو يرى نفسه يأخذ ثانية  
طريق تيمقاد، كان ينتابه إحساس واضح بأنه لم يأخذ هذا  
الطريق إلا لرؤية البدوية الصغيرة مرة أخرى.

ولأنه بعد لم يزل صافيا ونبيلًا، لم يحاول البتة أن يراوغ أو  
يزيف مع ضميره. كان يعلم أنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في  
شراء حبات حلوى، من أجل ربط تعارف مع فتاته الصغيرة والتي  
أسره ظرفها الغريب بطريقة لا تقاوم، والذي أمضى الأسبوع  
لا يفكر في شيء سواه.

... والآن ذاهب منذ الفجر عبر طريق لمباز الجميل، يستحث

حصانه، مأخوذ بلهفة أدهشته هو ذاته، لم يكن ذلك في الحقيقة إلا فراغ فؤاده الخارج من فوره من دائرة الغموض البهيج للمراهقة، حياته المنعزلة بعيدا عن مسقط رأسه، شبه عذرية أفكارها التي لم تلطخ نصاعتها دعارة باريس، لم يكن ذلك سوى الفراغ الرهيب الذي كان يدفعه نحو المجهول المربك، والذي بدأ يستشفه من خلال الخيوط الأولى لهذه المغامرة البدوية. ... أخيرا ها هو يتوغل في العنق الضيق العميق للوادي الناشف.

هنا وهناك، على الاكفهرار الرمادي لأشواك الغابة يلقي قطع من الماعز بقعة سوداء بجانب أخرى بيضاء لقطع من الغنم.

يبحث جاك في حالة من القلق تقريبا عن قطع ياسمينية. ما اسمها يا ترى؟ كم عمرها، هل ترضى أن تكلمني، هذه المرة، أم ستفر كما في ذلك اليوم؟ كان جاك يسائل نفسه كل هذه الأسئلة في اضطراب متزايد. ثم كيف سيكلمها وهي لا تفهم كلمة من الفرنسية، وهو لا يعرف ولو لغة مزيج؟ وأخيرا، في الجهة المقفرة من الوادي يعثر على ياسمينية، مستلقية على بطنها بين خرفانها، وهي تمسك رأسها بكتا يديها.

وبمجرد أن رآته، نهضت، في عدائية من جديد. متعودة على فظاظة واحتقار موظفي وعمال الآثار، كانت تمقت كل ما هو مسيحي.

لكن جاك كان بيتسم، ولم يكن يبدو عليه أنه يريد بها سوءا .  
بل كانت ترى أنه شاب ووسيم جدا في بدلته البسيطة من الكتان  
الأبيض .

بجانبتها قرية صغيرة معلقة بين ثلاثة أوتاد في شكل حزمة .  
طلب منها جاك أن يشرب بالإشارة، ومن دون أن تجيب  
أشارت ببنانها إلى القرية .

شرب . ثم قدم لها حفنة من قطع الحلوى الوردية . من دون  
أن تتجرأ على مد يدها قالت في خجل، تصحبه نصف ابتسامة  
وهي ترفع عينيها لأول مرة في وجه الرومي :

واش نوا، ما هذا؟

إنها لذيذة، رد ضاحكا من جهلها، لكنه كان في الوقت نفسه  
سعيدا لأن

الجليد ذاب أخيرا .

قضمت قطعة من الحلوى ثم فجأة وبنبرة فضة قليلا قالت :

شكرا!

لا، لا، خذها كلها!

شكرا! شكرا! سيدي! شكرا!

- ما اسمك؟

لم تفهم لمدة، وأخيرا ولأنه راح يذكر كل أسماء النساء العربية  
التي يعرفها، ضحكت وقالت :

- سُمينة (ياسمينية) .

حينها، أراد أن يجلسها إلى جانبه لمواصلة الحديث . غير  
أنها - وقد أصابها هلع مفاجئ - فرت مسرعة .

في كل أسبوع، حين يقترب يوم الأحد، يحدث جاك نفسه، بأن ما يقوم به خطأ جسيم، وأن عليه أن يترك هذا الكائن البريء في سلام، فكل شيء يفرق بينهما ولا يمكنه إلا أن يجره في كل حال إلى ضفة العذاب... لكنه ما عاد حرا في الذهاب إلى تيمقاد أو البقاء بباتة ويذهب...

لم يبق إلا القليل، ويأس مينة لم تعد تخشى من جاك. في كل مرة كانت تجيء من نفسها لتجلس بجانب الضابط، وهي تحاول أن تفهمه أشياء كثيرة ما كانت تقيب عنه معانيها رغم مجهودات الفتاة. ولما تدرك أنها لن تفلح في إفهامه، تطلق عنان ضحكتها... وحينئذ، تسفر ضحكة تلك الحنجرة التي تقلب رأسها إلى الوراء عن أسنان حليبية البياض، مما يبعث في نفس جاك إحساسا بالرغبة.

في المدينة، كان جاك يبذل قصارى جهده لتعلم اللغة الجزائرية... وكانت حماسه تثير ضحك رفقائه الذين يتكلمون قائلين: «لا بد أن هناك امرأة عربية وراء كل هذا».

جاك يحب الآن ياسمينة بجنون، بكل العنفوان الطافح للحب الأول، لرجل يتسم بالشهوانية والحلم في الوقت نفسه، رجل يمتزج عنده حب الجسد بالروح، ويضفي عليه شكل حنان حقيقي...

بيد أن ما يحبه جاك في ياسمينة، على جهله بالروح البدوية، هو ذاك الكائن الخيالي تماما، والخارج من مخيلته، وغير المشابه للواقع والحقيقة تماما..

مبتسمة، مع ظل كآبة في نظراتها، كانت ياسمينة تستمع إلى جاك وهو ينشد بتهور وبلا مهارة مرة أخرى وكل عشقه الذي ما عاد يحاول كبح جماحه.

مستحيل، قالت وفي صوتها نبرة حزن كئيبة. أنت رومي، كافر، وأنا مسلمة. تعلم هذا حرام عندنا، أن تتزوج المسلمة مسيحيا أو يهوديا؛ ومع ذلك أنت وسيم وطيب. أحبك... في أحد الأيام بكل سذاجة أخذت يده وقالت، وفي عينيها نظرة حنون: أسلم... إنه بسيط جدا! ارفع يدك اليمنى، هكذا، وقل معي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ببطء، متخذًا الأمر لعبة بسيطة، ومن أجل إرضائها، أعاد تلك الكلمات الرخيمة الجليظة والتي، يكفي أن تتطرق بإخلاص وصدق كي تربطك نهائيا بالإسلام... لكن ياسمينة لم تكن تعلم أنه يمكن أن نقول هذه الكلمات من دون أن نؤمن بها، كانت تعتقد أن ذكر كلمات الشهادتين، والمجاهرة بالإيمان وحدهما، يجعلان من جاك الرومي مؤمنا... وجاك، جاهلا بالأفكار الفجة والبدائية التي يحملها الشعب الأمي عن الإسلام، لم يكن يعلم ويقدر مدى قيمة ما فعل.

في ذلك اليوم، وعند المغادرة وبعضوية وضحكة بهيجة، أعطته قبلة، الأولى... كانت بالنسبة إلى جاك النشوة الكبرى والثمالة السرمدية.

ومنذ ذلك الوقت، كلما كان غير مشغول، تحرر لبعض الساعات، وينطلق خافق القلب، مسرعا باتجاه تيمقاد. لم يعد جاك البتة روميا أو كافرا بالنسبة إلى ياسمينة،

لقد شهد بالوحدانية المطلقة لله، وبرسالة نبيه. وفي أحد الأيام وبكل بساطة وبكل العشق المفعم بالحيوية التي يتمتع بها جنسها، سلمت نفسها ...

وعاشا لحظة فناء لا توصف، ليستفيقا بعدها وقد استتارت الروح بنور جديد، كأنهما خرجا من فورهما من عوالم الظلام. ... لقد غدا جاك الآن بمقدرته أن يهمس لياسمينية بكل الأشياء الرقيقة أو المؤلمة المترعة بها روحه، بقدر تطوره في اللغة العربية الذي كان سريعا ... أحيانا كان يتوسلها أن تغني. حينئذ، وهو مستلق بجانب ياسمينية، يضع رأسه على ركبتيها، مغمض العينين، ويفيب راحلا عبر أحلام لذيذة، غامضة.

منذ فترة، كانت تراوده فكرة غريبة وعلى الرغم من علمه بصبيانيتها واستحالة تحققها، كان يستسلم لها، لما كان يجد فيها من متعة غريبة ... أن يترك كل شيء، أن يتخلى عن عائلته، في فرنسا، أن يظل بأفريقيا ليعيش إلى الأبد مع ياسمينية ... وحتى الاستقالة والرحيل معها أبدا وتحت البرنوس والعمامة، ليعيش حياة وثيدة، خلي البال في أحد قصور الجنوب ... حين يكون جاك بعيدا عن ياسمينية، يسترد كل وعيه، وبيتسم من تلك التصرفات الصببانية البئسة ... لكنه بمجرد أن يجد نفسه إلى جوارها، يستسلم إلى خنوع ذهني ذي رقة لا توصف. كان يأخذها بين ذراعيه، يفوس بنظراته في ظل عينيها، ويعيد إلى ما لا نهاية هذه الكلمة العربية الرقيقة جدا والمفعمة بالمحبة والحنان:

- لعزيزة! لعزيزة! لعزيزة!

لم تفكر ياسمينة قط في مآل حبها هذا لجاك. كانت تعلم أن كثيرات من بني جنسها لهن عشاق، ويخفين ذلك بعناية شديدة على أهاليهن، وأنه عموماً ما تنتهي هذه العلاقات بالزواج.

كانت تعيش اللحظة، سعيدة، بكل بساطة فقط، من دون تفكير ومن دون أي رغبة أخرى عدا استمرار سعادتها إلى الأبد. أما جاك فكان يرى بوضوح أن حبهما لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال أبد الدهر. لأنه يدرك استحالة زواج بينه - هو وله أسرة هناك بفرنسا - وبينها هي هذه البدوية الصغيرة، والتي لا يمكن أن يفكر حتى في نقلها إلى محيط آخر، إلى أرض بعيدة وغريبة عنها.

لقد أخبرته بأنه سيتم تزويجها إلى قهواجي بالمدينة، في نهاية الخريف.

ولكن كم كانت بعيدة نهاية الخريف.

جاك أيضاً كان يستسلم إلى نشوة اللحظة...

حين يريدون تزويجها بالأعور ستأخذني وتخبئني في مكان ما في الجبل، حيث الأشجار الكبيرة المعمرة أكثر من كل الشيوخ الكبار، وحيث الماء المنعش العذب الرقراق تحت الظل. وأيضاً حيث العصافير ذوات الريش الأحمر والأخضر والأصفر تغني...  
«أريد أن أسمعها وأنا م تحت الظل، أشرب من الماء العذب... ستخبئني في الجبل وستأتي لرؤيتي كل يوم... سأتعلم الغناء مثل العصافير، وسأغني لك. ثم سأعلمها اسمك كي تردده لي حين تغيب».



كانت ياسمينة أحيانا تحدثه على هذا النحو، وفي نظرتها الغربية رزاة ووقار وتأجج...

لكن تقول إن عصافير جبل طوقور عصافير مسلمة... ولن تعرف تغريد اسمك الرومي... لن تعرف مناداتك إلا باسم مسلم... وأنا من سيعطيكه كي أعلمها إياه... سأسميك مبروك، سيكون هذا فألا حسنا لنا.

... لقد أصبحت هذه اللغة العربية بالنسبة إلى جاك موسيقى عذبة، لأنها كانت لغتها، وكل ما كان لها يسكره. جاك لم يعد يفكر، كان يحيا اللحظة فقط. وكان سعيدا.

علم جاك يوما، أنه عين لمنصب آخر في الجنوب الوهراني. قرأ القرار المحتوم وأعاد القراءة من دون أن يفهم معنى آخر غير الرحيل ومفادرة ياسمينة، وتركها تتزوج من ذاك النادل الأعمور وعدم رؤيتها إلى الأبد.

لأيام وأيام، وهو يبحث في يأس عن أي مبرر يمنعه من السفر، تبادل مع أحد رفاقه... لكن دون جدوى.

وإلى آخر لحظة، مادام يبقى في نفسه بصيصا من أمل لم يشأ أن يخبر ياسمينة بالمصيبة التي ستعصف بهما.

وخلال لياليه الموسومة بالأرق والحمى، كان يتوصل إلى اتخاذ قرارات نهائية: مرة يفكر في المجازفة بإطلاق العنان للفضيحة وما ينجر عنها من اختطاف وزواج. ومرة أخرى يفكر في تقديم استقالته، والتخلي عن كل شيء من أجل ياسمينته، كي يصبح في الحقيقة مبروك ذاك الذي تحلم أن تصنعه منه... لكن فكرة

تتدخل دوما لإيقافه؛ هناك في الأردن أب عجوز وأم قد ابيض شعرها سيموتان حزنا لا محالة إذا قام ابنهما «الملازم الأول جاك الوسيم» كما ينادونه في البلد، بكل هذه الأشياء التي تراود ذهنه الملتهب، في الساعات البطيئة لليالي المضنية.

كانت ياسمينة قد لاحظت الحزن والكآبة المتفاقمين لدى مبروكها لكنه - غير قادر بعد على البوح لها بالحقيقة - كان يقول لها إن أمه العجوز مريضة هناك بفرنسا.

وياسمينة تحاول مواساته وتلقينه حتميتها الهادئة. مكتوب، قالت، كلنا تحت رحمة الله وسنموت جميعا، كي نعود إليه... لا تبك؛ يا مبروك، هذا مكتوب.

«نعم، فكر بمرارة، سنضطر كلنا، اليوم أو غدا إلى فراق كل ما هو عزيز لدينا إلى الأبد... لماذا إذن يفرقنا القدر قبل الأوان هذا المكتوب الذي نتحدث عنه ونحن لم نزل على قيد الحياة كلانا؟» أخيرا، أيام قليلة قبل اليوم المحتوم المحدد لانطلاقه، ذهب جاك إلى تيمقاد... وقلبه مترع بالمخاوف والكآبة، قول الحقيقة لياسمينة. غير أنه لم يكن يريد إطلاقا أن يخبرها بأن فراقهما سيكون على الأرجح، بل بالتأكيد، نهائيا...

لقد حدثها عن مهمة ستستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر. كان جاك ينتظر انفجارا ليأس شجي حزين... لكنها، واقفة أمامه، لم تبس ببنت شفة. لقد استمرت في التأمل في وجهه، كمن يريد أن يقرأ في عمق أفكاره الدفينة... أربكته كثيرا تلك النظرة العميقة والمفرغة من كل تعبير، والتي بإمكانه تفهمها... يا إلهي! هل ستعتقد أنه يتركها طوعا؟

كيف السبيل لشرح الحقيقة، كيف يمكنه إقناعها بأنه لم يعد سيد نفسه؟ بالنسبة إليها، الضابط الفرنسي كائن قادر على كل شيء تقريبا، له الحرية المطلقة فيما يريد.

... واستمرت ياسمينه في النظر إلى جاك وجها لوجه، العينان في العينين، لم تزل محتفظة بالصمت...

لم يستطع تحمل تلك النظرة التي تتراءى مدينة له طويلا. فطوقها بين ذراعيه:

ياالعزيزة! لعزيزة! قال، أنت غاضبة مني! ألا ترين أن قلبي يتمزق ألما، وأني ما رحلت عنك أبدا، لو فقط كان بإمكانني البقاء..

قطبت حاجبيها الدقيقين الأسودين.

أنت تكذب! قالت، تكذب! أنت لم تعد تحب ياسمينه، خليلتك، امرأتك، خادمك، تلك التي أخذت منها عذريتها. أنت من يريد الرحيل!... وتكذب مرة أخرى حين تقول إنك قريبا ستعود... لا لن تعود أبدا، أبدا، أبدا!

ترأت لجاك هذه الكلمة المكررة بعناد وبنبرة جلية تقريبا كأنها قرعة شبابيه الجنائزية.

أبدا! أبدا! كان هناك في الصوت ذاته لهذه الكلمة شيء ما من الجزم والقطعية والمتانة والحتمية.

نعم، إنك راحل... للزوج من رومية هناك بفرنسا.

وتأججت شعلة كئيبة في العيون الكبيرة الصهباء للبدوية. وتملصت بخشونة تقريبا من حضن جاك، وبصقت على الأرض، باحتقار، في حركة نقمة شرسة.

كلاب وأولاد كلاب، كل الروم!

آه يا ياسمينه كم أنت متعسفة في حقي! أقسم لك إنني توسلت لكل رفقائي الواحد تلو الآخر، كي يذهب أحدهم في مكاني... ولكنهم رفضوا.

آه أنت ترى بنفسك أن ضابطا حين يرفض الذهاب، فلن يذهب!

ولكن رفقائي، أنا من توسلهم للذهاب في مكاني، وهم لا يخضعون لسلطتي... أما أنا فأخضع لسلطة الجنرال، وسلطة وزارة الدفاع...

لكن ياسمينه - غير مصدقة - بقيت عدائية ومتصلبة. وتأسف جاك على عدم حدوث انفجار اليأس الذي خشيه كثيرا في الطريق.

ومكثا طويلا هكذا، صامتين، منفصلين حاليا بهوة عميقة، بكل هذه الأشياء الأوروبية التي تسيطر باستبداد على حياته، والتي لا يمكن لياسمينه أن تفهما أبدا.

وأخيرا بكى جاك، والقلب يطفح بالمرارة، ورأسه ملقى على ركبتي ياسمينه.

حين رآته في يأس يجهد بالبكاء، أدركت أنه كان صادقا... أمسكت بالرأس الغالية الحبيبة وشدتها إليها، باكية هي الأخرى، أخيرا.

مبروك! بؤبؤ العينين! نوري! يا بقعة صغيرة سوداء على القلب! لا تبك، سيدي! لا تذهب، يا سيدي. إذا كنت تريد الذهاب فسأرقد في طريقك وأموت. وإذن فستضطر إلى المرور

على جثة ياسمينتك. أو إذا كان لا بد من ذهابك، فخذني معك.  
سأكون أمتك. سأعنتي ببيتك وحصانك... وإذا مرضت، أعطيك  
دم شرابيني كي تشفى... أو أموت بدلا عنك. يا مبروك!  
يا سيدي خذني معك...

ولأنه بقي صامتا، منكسرا أمام استحالة ما يتبعيه، أردفت قائلة:  
إذن، هيا، ضع ملابس عربية. لنهرب معا إلى الجبل، أو أبعد  
من ذلك إلى الصحراء، إلى بلاد الشعانبة والطوارق... ستصبح  
مسلمة كلية، وستسى فرنسا...

لا أستطيع... لا تطلبي مني المستحيل. لي والدان عجوزان  
هناك، بفرنسا، وسيموتان غما... أه! الله وحده يعلم كم أرغب  
في إبقائك إلى جانبي، إلى الأبد.

كان يحس بشفتيها الداقتين وهما تلامسان بنعومة يديه،  
وفي غمرة تدفق دموعهما الممزوجة... أيقظت في نفسه تلك  
الملامسة أفكارا أخرى، وعاشا مرة أخرى لحظة أخرى من  
الغبطة العميقة جدا، والمطلقة تماما، لم يعرفا شبيها لها حتى  
في سعادتهما الهادئة.

ولكن أخيرا، دقت الساعة الجليلة للوداع... وداع أحدهما  
يعلم والآخر يستشعر بأنه الوداع الأبدي...  
وضعا في قبلتهما الأخيرة، رحيق روحيهما...

مكثت ياسمينة في مكانها تستمع إلى رجوع وقع حوافر حصان  
جاك طويلا... ولما لم تعد تسمعه، وعاد المكان إلى صمته الثقيل  
المعهود، ألقت البدوية الصغيرة بوجهها على الأرض واستغرقت  
في البكاء...

مر شهر على سفر جاك، وياسمينة لم تزل تعيش نوعا من  
الخمود الحزين.

طوال اليوم، وحدها من الآن فصاعدا في واديهما الموحش،  
تبقى ياسمينة مستلقية على الأرض، بلا حراك.

في عمق ذاتها، لا ثورة على المكتوب الذي تعودت عليه منذ  
نعومة أظافرها، وأن تسند إليه كل ما يحدث لها من خير أو شر  
على السواء... فقط ألم حاد ووجع مستمر، بلا مهادنة أو توقف،  
العذاب الفظ والجائر للكائنات غير الواعية، أطفال أو حيوانات،  
والذين لا يملكون حتى العزاء المر لفهم لماذا وكيف يتعذبون...

مثل كل البدو الرحل. مزيج مشوب حيث ضاع الدم الآسيوي  
وسط القبائل من السكان الأصليين، شاوية، بربر، الخ... لم تكن  
تعرف ياسمينة عن الإسلام إلا فكرة مبهمة. كانت تعرف - دون  
أن تدرك مع ذلك ماذا يعني - أن هناك إلهًا، واحدا، أحدا، أزليا،  
خلق كل شيء، وهو رب العالمين وأن محمدا رسوله وأن القرآن هو  
التعبير المكتوب للدين. كانت تعرف أيضا قراءة سورتين أو ثلاث  
من السور القصار والتي لا يجهلها أي مسلم.

لم تكن تعرف ياسمينة من الفرنسيين إلا أولئك الذين كانوا  
يحرسون الآثار ويعملون في الحضريات.. وتعرف كم قاست  
منهم قبيلتها. واستنتجت من هنا أن كل الفرنسيين هم الأعداء  
اللدودون للعرب. بذل جاك كل جهوده كي يشرح لها أن هناك  
فرنسيين لا يحقدون البتة على المسلمين... لكنه كان يعلم في  
قرارة نفسه أنه يكفي بعض من الموظفين الجهلاء الغلاظ الطبع  
كي يعيد فرنسا ممقوتة في عيون القرويين البسطاء الأميين.

كانت ياسمينة تسمع كل عرب الضواحي يشتكون من دفع الضرائب الباهظة، وكيف هم مرعوبون من الإدارة العسكرية، كيف نهبت أموالهم... واستتجت أنه على الأغلب أن هؤلاء الفرنسيين الطيبين والإنسانيين والذين يتحدث عنهم جاك لم يقدموا إلى بلادها، وأنهم بقوا بعيدا، في مكان ما.

كان كل هذا غامضا ولم يشغل بالها على الإطلاق، في ذهنيها البسيطة الجاهلة، حيث تنام بعمق القوى الحية. لم تبدأ أعمال فكرها وعلى نحو غامض، إلا بعد أن أحببت. فيما مضى، حين كان جاك يغادرها للعودة إلى باتة، تبقى متأملة. ماذا يفعل هناك؟ أين يعيش؟ هل يلتقي بنساء أخريات، روميات يخرجن بلا حجاب ولهن فساتين من الحرير وقبعات كتلك التي يرتديها النسوة اللاتي يزرن الآثار؟ حينئذ اشتعلت موجة من الغيرة في قلبها.

ومنذ أن غادر جاك إلى الجنوب الوهراني البعيد، تعذبت ياسمينة كثيرا، وبدأ يتأكد ذكاؤها.

أحيانا، في خلوتها الكثيرة تطلق العنان لصوتها لتردد كل الأغاني الحزينة التي أحبها، فتغلبها الدموع، ليقطع نحيب شجي تلك المقاطع الفنائية، منادية مبروكها العزيز بكل الأسماء التي تعودت مناداته بها، مترجية إياه أن يعود، كأنه يسمعها.

لقد كانت أمية، لذا كان لا يمكن لجاك أن يرأسلها، وهي لن تتجرأ أن تظهر رسائل الملازم الأول لأي كان من أجل ترجمة معانيها.

وفي أحد أيام الأحد، بينما كانت غارقة في أحلامها الحزينة، شاهدت فارسا عربيا يمتطي حصانه الرمادي المندفع، قادما من جهة باتة. دفع الفارس الذي كان يرتدي بدلة الصبائحين باتجاه الوادي. كان يبدو كأنه يبحث عن شخص ما. وحين رأى الفتاه بادرها بالسؤال:

أولست أنت سميئة بنت الحاج سالم؟  
من أنت، وكيف لك بمعرفتي؟

إذن، فأنت هي! أنا الشريف بن علي الشعاني، ملازم أول في الجيش الفرنسي، وصديق لجاك. أولست أنت من كنت خليلة له؟ حاولت ياسميئة الهرب وقد ذعرت حين رأيت أن سرها الآن في حوزة مسلم. لكن الضابط أمسكها من معصمها، مرغما إياها على البقاء بالقوة. أين تذهبين يا بنت الحرام، قطعت كل هذه المسافة لكي أراك، وتهربين.

كانت تحاول التملص ولكن من دون جدوى.  
اتركني! اتركني! أنا لا أعرف أحدا، لم أكن خليلة لأحد!  
وراح الشريف يقهقه.  
بلى، كنت خليلته، يا بنت الحرام! وكنت سأقطع رأسك لولا أن جاك بمنزلة أخ لي. تعالي إلى هناك، في عمق الوادي لا يجب أن يرانا أحد. لك عندي رسالة من جاك وسأقرأها لك.  
وبفرح غامر راحت تضرب بيديها.  
أخبرها جاك في رسالته بأنها يمكن أن تثق بالشريف،



وأنه يمكنها إذا أصابها مكروه أن تتصل به . وأنه لا يفكر إلا فيها، وأنه لم يزل على العهد مخلصا ووفيا لها، لينهي خطابه بالقسم على أنه سيظل يحبها، ولن ينساها أبدا، وأنه سيعود يوما ليأخذها. عهود جميلة، وحزم شباب محتوم، سيمحوه الزمن ويطمس معالمه سريعا كل الأشياء الأخرى!...

توسلت باسمينة إلى الشريف أن يجيب جاك بأنها هي أيضا لم تزل تحبه، وستبقى مخلصا له مدى الحياة، وأنها ستبقى أمته الخاضعة المحبة، وأنها تتمنى أن تكون التراب الذي تحت قدميه. ابتسم الشريف.

لو أحببت رجلا مسلما، قال، لتزوجك حسب الشرع، ولما كنت هنا الآن تذرفين الدموع...  
مكتوب!

وامتطى الضابط صهوة جواده الرمادي، وانطلق مسرعا، مثيرا سحابة من الغبار.

كان جاك يخشى أن يثير انتباه سكان الدوار فأجل طويلا إرسال خطاب ثان إلى باسمينة... طويلا إلى حد أنه حين أراد ذلك علم أن الشريف قد غادر إلى منصب آخر بالصحراء. وريدا، وريدا بعد اليأس الكبير للحظة الأولى تسللت السكينة إلى قلب جاك.

في القصر الوهراني حيث كان يعيش، تعرف جاك على رفقاء فرنسيين متميزين، ومثقفين جدا، وكان أحدهم يملك مكتبة ثرية. وراح ينهل من الكتب، ويدرس مسائل كانت إلى ذلك الحين غريبة مجهولة لديه... وتفتح عقله على آفاق جديدة...

وبعد مدة من الزمن غير منصبه. في جيريفي، تعرف على شابة إسبانية جميلة وأغرم بها.

وهكذا تباعدت الصورة الفاتنة لياسمينه في الأمواج البعيدة للذاكرة، حيث تسريل كل شيء بضباب كثيف لينتهي في اللجة العميقة للنسيان التام...

وأخيرا جاء محمد الأعور يبلغ بأنه في إمكانه الآن تغطية مصاريف الزواج.

وحدد تاريخا قريبا جدا لإقامة حفل الزفاف.

واستسلمت ياسمينه بسلبية لقدرها...

وبغريزة المحب الوله، أحسست ياسمينه بأن جاك قد طوى صفحاتها، فأصبح منذ ذلك الأمر بالنسبة إليها سيان.

وعلى الرغم من ذلك كانت تتتابها لحظات كأبة تعصر قلبها حين تذكر هذا الزواج، ولأنها تعرف عادات شعبها، لم يكن صعبا عليها أن تتوقع غضب زوجها، حين يكتشف أنها فقدت عذريتها. كانت متأكدة أنها ستغدو زوجة القهواجي الأعور، حين فجأة شب نزاع مصالح بين الحاج سالم والأعور.

ولم تمض إلا أيام قليلة، حتى علمت ياسمينه أنها ستعطى لرجل لم تره إلا مرة واحدة، صباثحي، عبدالقادر بن إسماعيل، شاب وسيم، عرف عنه أنه شجاع وغير مطيع، لوحظ في الخدمة العسكرية سلبييا عدة مرات بسبب طبعه المتمرد، إلا أنه كان محترما ومحبوبا لدى رؤسائه لشجاعته وذكائه.

تزوج ياسمينه عن حب، وقد وجدها جميلة، في تفتح ربيعتها الخامس عشر... فقدم للحاج سالم مهرا أكبر من ذلك الذي وعد

به الأعرور. وفوق هذا كله، فإن مصاهرة هذا الشاب المنحدر من عائلة من قالة على الرغم من خصامه مع والديه بعد انخراطه في الجيش، أرضت كبرياء الشيخ .

واستمر العرس ثلاثة أيام، في الدوار أولاً، ثم في المدينة. في الدوار، أطلقت بعض الأعيرة النارية من البنادق، والكثير من المفرقات، كما نظم سباق لجياد جائعة، تخللته صرخات عالية تحمس الرجال والجياد ...

أما في المدينة فقد رقصت النسوة على أنغام البنادير والغايطة البدوية.

متشحة بعدة قمصان من قماش المسلمين الأبيض ذي الأردان الطويلة والواسعة الباغودية، وقفطان من المخمل الأزرق والمزين بشرائط ذهبية، وقندورة وردية من الحرير، وقد غطت شعرها بشاشية صغيرة مستدقة الرأس، كرزية وخضراء، مزينة بحلي ذهبية وفضية، كانت ياسمينة متربعة على عرش الحجر، تجلس بين النسوة على الكرسي الوحيد بها، بينما كان الرجال يحتفلون بالخارج، في الشارع وعلى مقاعد المقاهي العربية المقابلة.

ومن النسوة علمت ياسمينة بمغادرة الشريف الشعانبي، وانطفأت جذوة الأمل الأخيرة التي كانت محتفظة بها: لن تعرف أبداً إذن شيئاً عن جاكها .

في المساء، عندما أصبحت وحيدة مع عبدالقادر لم تستطع ياسمينة أن ترفع عينيها في عيني زوجها . مضطربة، تفكر في انفجار غضبه الوشيك وفي الفضيحة التي ستجتمعه، هذا إذا لم يقتلها في الحين ذاته .

لم تزل تحب روميها، واستبدال الفارس العربي بالأعور  
لم يبعث الفرحة إطلاقاً في نفسها... على العكس، فقد كانت  
تعلم أن الأعور يقترب في طبعه من الطفل الطيب، بينما اشتهر  
عبدالقادر بأنه رجل عنيف وشرس...

... عندما علم بما لا تستطيع ياسمينة إخفاءه، اجتاح  
عبدالقادر غضب شديد، خاصة أنه كان مغرماً بها. فشرع في  
ضربها بقسوة ووحشية ثم طلب منها أن تكشف له عن اسم  
عشيقتها.

إنه ضابط... مسلم... منذ زمان طويل... وقد رحل...  
مذعورة من تهديدات زوجها، فأعطته اسم الضابط الشعانبي:  
بما أنه غير موجود، ماذا يهم؟ لم ترد أن تبوح بالحقيقة، أن  
تعترف بأنها كانت عشيقة لفرنسي، فهذا لن يزيد إلا من فظاعة  
خطئها في عيني عبدالقادر...

لكن شغف الفارس العربي كان أقوى من غضبه... على كل  
حال، أكيد أن الضابط لم يتكلم وقد غادر الآن، ولن يكتشف  
سره أحد.

أبقى عبدالقادر على ياسمينة ببيته، لكنه أصبح سبب زعر  
دوار الحاج سالم، حيث يذهب باستمرار للمطالبة بالمال من  
صهره اللذين أصبحا يخافانه، وقد ندما على عدم تزويج  
ابنتهما لمحمد الأعور الهادئ الطيب.

في صمت وحزن كبيرين مستديمين، كانت ياسمينة تقضي  
كل أيامها في خياطة قمصان رديئة من الكتان، والتي تأخذها  
دوجة العمدة العجوز للفارس إلى تاجر ميزابي.

هناك بالمنزل أيضا، أخت عبدالقادر، التي ستتزوج عن قريب بأحد رفقاء أخيها.

حين لا يكون الفارس سكرانا، يحدث أحيانا أن يحمل إلى زوجته بعض الهدايا، بعض الخرق لزينتها، وحتى الحلبي، والفواكه والحلوى... يصرف كل ما في رصيده عليها. ولكن أحيانا أخرى، يدخل البيت سكرانا، وإذن فالويل لها منه.

واستمرت ياسمينة غير مبالية، لا بالمداعبة ولا بالضرب، قد التزمت الصمت، كانت تختق بين الجدران الأربعة البيضاء للساحة المغاربية، حيث كانت مسجونة، وهي تتأسف بمرارة على تلك الرحابة وذاك البراح الطليق في مسقط رأسها. وتلك الآثار العظيمة المتوعدة، وواديها الموحش.

كان عبدالقادر يدرك أن زوجته لا تحبه، وهذا ما يفيظه.

فيتمادى في ضربها بكل وحشية.

ولكن، بمجرد أن يراها وهي تذرف دموعها، يحضنها بين ذراعيه، ويفرقها قبلا للأخذ بخاطرها.

وياسمينة بكل العناد، تستمر في حب روميها، مبروكها... أفكارها دوما تحلق باتجاه الجنوب الوهراني الذي لا تعرف عنه شيئا حيث تعتقد أنه لم يزل هناك.

كانت تتساءل في حزن عما إذا كان سيعود مبروك أم لا... فإذا ما خلت بنفسها، استسلمت للبكاء الصامت المسهب.

نسي جاك منذ زمان، حلم الحب ذاك الذي عاشه في فجر حياته، في سهل تيمقاد المقفر والذي لم يعمر إلا صيفا واحدا. لم تمر سنة تقريبا. على زواجه، حتى حكم على عبدالقادر

بعشر سنوات من الأشغال العمومية بسبب واقعة ضد رئيس  
سام خارج العمل...أخته تبعت زوجها إلى الصحراء أما العمّة  
العجوز فقد توفيت.

وبقيت باسمينة وحدها من دون مصدر رزق.

لم تشأ العودة إلى قبيلتها.

لقد احتفظت بذلك الطبع الداكن، الصامت الذي أصبح  
مميزا لها بعد رحيل جاك... لم تكن تريد أن يزوجوها مرة  
أخرى، وقد أصبحت الآن أرملة، تريد أن تبقى حرة لانتظار  
ميروكها.

ولا بد أن الزمن لديها أيضا، قد خفف عذاب القلب... لكنها  
لم تجد شيئا يعوضها عن حبه، واستمرت في حب الغياب، الذي  
منذ زمان لم تعد تتجرأ حتى على الحلم بعودته.

عندما نفذت الدريهمات الأخيرة، التي تركها لها عبدالقادر،  
هيأت أسماها في رزمة وأعدت المفتاح إلى صاحبة المنزل.

وعندما أسدل الليل ستائره، غادرت باتجاه القرية السوداء،  
والتي لا تبعد عن باتنة إلا بخمسمائة متر - أرضية عراء حيث  
يوجد المسجد.

هذه القرية عبارة عن ركام من الأكواخ الخشبية أو من  
الطوب، أكواخ وسخة ومتهدمة، تقطنها مجموعة من العاهرات  
الزنجيات، والبدويات، والمغريبات، واليهوديات والمالطيات،  
يعشن هناك متراكمات بلا نظام، مع نماذج عديدة من الرجال  
المشبهين، أكثريتهم من القوادين والمجرمين.

هناك مقاه مغاربية حيث ترقص النساء وتغني حتى العاشرة

ليلا، وحيث يدخن الحشيش بعد غلق الأبواب، طيلة الليل. ذلك هو مكان اللهو بالنسبة إلى عسكري الحامية.

تعرفت باسمينة في الوقت الذي بقيت فيه وحيدة على مغاربية تعيش في القرية السوداء برفقة زنجية من أولاد ريغ. كانت زهرة وسمراء تعملان بماخور يديره رجل يدعى ألي فرانك، يدعي أنه مسلم وتونسي، غير أن اسمه يدل على أصل آخر، وعلاوة على ذلك، له سوابق عدلية وهو مراقب من طرف الشرطة.

وقد نصحت المغنيتان باسمينة بالمجيء ومشاركتهما غرفتهما، ورسمتا لها بريق وامتيازات ظروف حياتهما المزعومة. ولما أحست بأنها مهجورة ووحيدة تماما، التحقت بالصدقتين اللتين استقبلتاها بكل فرح.

في ذاك المساء، كان الظهور الأول لياسمينية بالمقهى كي تغني. كان ذلك في قاعة كبيرة منخفضة، يملأها دخان السجائر، حيث أرضيتها المسكونة بالعقارب، مدروسة، وجدرانها المطلية بالجير كانت مغطاة بكتابات ورسوم دونها الزبائن، معظمها بذيء، مغل بالحياء حد البهيمية، وعلى طول الجدارين المتوازيين صفت طاوولات ومقاعد، تاركة فضاء واسعا في الوسط. وهناك في العمق طاولة خشبية تستعمل كطاولة شرب، وضعت خلفها شبه مصطبة مغطاة بحصائر قديمة.

كانت الراقصات جالسات القرفصاء، عددن سبع؛ ياسمينية، وصدقتهاها، وبدوية تدعى حفصية، وعنايية تدعى عائشة ويهوديتان، سطيطرة وراحيل، هذه الأخيرة من الكاف، كانت

ترتدي البدلة التونسية للراقصات، لابسـة على موضـة مصر: سروال عريض أبيض، وسترة حريرية صغيرة ذات ألوان، والشعر متموج، معقود فقط بشريط أحمر، تتعل خفين صغيرين من الساتان بكعب عال.

كلهن يتزين بحلي ذهبية، يضعن حلقات ثقيلة في آذانهن. ما عدا البدوية والزنجية فقد كانتا ترتديان لباسا صحراويا، ستار واسع أزرق داكن، مشبوك على الكتفين مكونا جلبابا. وعلى الرأس تسريحة معقدة، متكونة من جدائل كبيرة من الصوف الأحمر ملوية مع الشعر على الأصداغ، ومناديل منضدة، وجواهر معلقة على سلاسل. وعندما تقف إحداهن للرقص في القاعة بين المتفرجين، تمكث الأخريات على المصطبة يغنين، ويضربن بأيديهن وبالدفوف، بينما غلام يعزف على الشبابة العربية، ويهودي يعزف براءة على ضرب من الماندولين.

كانت أغانيهن، وحركات رقصن تتميز بصفاقة متأججة تلهب تدريجيا المتفرجين الكثر في ذاك المساء.

كانت الدعابات والإطراءات الفجة تهطل بالعربية، والفرنسية الممزوجتين قليلا أو كثيرا بالدارجة.

تبدين مكنتزة يا صبية! قال شاب مبتهج من بالفيل منفي في أفريقيا، وهو يبدو في حالة إعجاب أمام ياسمينه، حين نزلت بدورها إلى القاعة.

جدية وحزينة كعادتها، متسريلة باستسلامها وبجلمها، كانت ترقص لأولئك الرجال الذين ستكون فريسة لهم بمجرد غلق الماخور.



رأها عريف من الصبائحين كان يعرف عبدالقادر بن  
إسماعيل فتعرف عليها من فورهم.

انظروا! قال، ها هي زوجة عبدالقادر، الرجل بالسجن والمرأة  
بالحانة... الأمور تسير رغم كل شيء!

وكان هو من التحق بياسمينه تلك الليلة في المخدع الذي  
تستعمله كغرفة.

كان البدر يصاعد هناك، في الشرق، خلف القمم المعتمة  
لجبال الأوراس...

لمعان أزرق اللون ينزلق على الجدران والأشجار، ملقيا ظلالات  
عميقة على الأماكن المظلمة والزوايا المخبأة التي كانت تبدو  
كأنها فجاج عميقة.

وفي وسط الأرضية العراء الجذبة والتي تلامس من جهة  
السور الرمادي للمدينة، وبوابة لمباز، والمنحدرات الأولى للجبل  
من جهة أخرى يقف المسجد منزويا... بلا نسق وبلا أناقة في  
الضوء السحري للقمر، كان يبدو شفيفا تقريبا، غارقا في توهج  
غامض.

بجوار القرية السوداء، كانت تتردد أصوات الدفوف والشبابة  
العريية في الأفق... وأمام مقهى ألي فرانك، تجلس امرأة على  
المقعد الخشبي، واضعة مرفقيها على الركبتين وتمسك رأسها  
بكلتا يديها، كانت ترقب المارة، في لامبالاة عميقة تقترب إلى  
الاشمئزاز والتقرز.

في غاية الهزال، بوجنتيها ذات الاحمرار المكفهر، وعينيها  
الغائرتين، اللامعتين بشكل غريب، وشفتيها المسترقتين،

المشودوتين في ألم، كانت تبدو كأنها كبرت عشر سنين، البدوية الصغيرة الغضة، فاتتة آثار تيمقاد...

غير أنه، وعلى الرغم من قناع الألم ذاك، الذي كأنه قناع الاحتضار، خاصة بعد الحياة التي عاشتها على مدار ثلاث سنوات، والتي لم تترك منها غير ظل للحزن جد عميق... وعلى الرغم من كل ذلك لم تزل تحتفظ بجمال مستبد وشفيف... غالباً ما كان صدرها يهتز على وقع سعال حاد ومستمر، ويلون بالأحمر مندليها...

الحزن، الخبرة والعوامل المرضية الضارة، التي كانت تعيش في وسطها أتت على الصحة المتينة للبدوية الصغيرة المتعودة على الهواء النقي للريف.

خمس سنوات مرت على رحيل جاك إلى الجنوب الوهراني، وها هي تقلبات الحياة العسكرية تعيده مرة أخرى إلى مدينة باتنة.

جاءها مع زوجته الشابة، الباريسية الرقيقة الجميلة؛ كانا قد تعارفا وتحاببا في الكوت دازير حيث كان جاك في مدينة نيس التي جاءها في عطلة نقاهة بعد مرض أصابه.

تذكر جاك ما تعود على تسميته الآن بالبدوية الحب البريء، حتى أنه كلم زوجته عنها... ولكن كل ذلك كان بعيداً، فهو أصبح يختلف كثيراً عن ذلك الضابط الشاب الذي كان...

كنت آنذاك مراهقاً حالماً ومتحمساً. آه لو كنت تعرفين يا عزيزتي تلك الأفكار المثيرة للسخرية والتي كنت أحملها! لقد كدت أن أتخلى عن كل شيء من أجل تلك البدوية المتوحشة...

لو كنت استسلمت لذاك الجنون، ترى ما كان سيحدث لي، الله يعلم وحده!

آه! كم يبدو له الآن سخيفاً، ذاك الملازم الأول الصغير الصادق المتأجج الذي كان.

لم يفهم كيف كان الشكل الأول لأناه الواعية أفضل وأجمل من الشكل الثاني الذي اقترن بالعقل المعاصر، المغتر، الأناني والناقد الذي اخترقه شيئاً فشيئاً.

في تلك الحالة، في ذاك المساء وقد خرج مع زوجته التي لم تجد أي سحر في الشوارع الأربعة أو الخمسة المستقيمة للمدينة بادرها جاك قائلاً:

تعالى، سأريك جنة الجنود... ولكن لا تتشدي كثيراً، لأن المشهد سيبدو لك أحياناً طبيعياً حد الفجاجة.

في طريقهما، التقيا بأحد أصدقاء جاك، برفقة زوجته أيضاً. وراقت لهم فكرة الذهاب إلى القرية السوداء، فانطلقوا، وقد سبقهم جاك محاولاً استطلاع الطريق، تاركاً زوجته متشبثة بذراع صديقتها.

ولأنه مر من أمام مقهى ألي فرانك، قفزت ياسمينه وصاحت:  
- مبروك! مبروك! أنت!

تعرف جاك أيضاً على ياسمينه، فهذا الاسم وحده يكفيه لذلك. فاعترت قلبه برودة جليدية شديدة... لم يجد كلمة يرد بها على هذه التي أسعدتها عودته بهذا الشكل الجنوني.

لعن نفسه في السر أن خطرت بباله فكرة إحضار زوجته إلى هذا المكان... لن تترك فضيحة، إلا أنت بها هذه المرأة الضائعة

وسط غياهب الدعارة، حين تعلم أنه لا أمل يرجى منه!  
فضل أن ينهي الأمر في حينه، وأن يضع حداً نهائياً لهذه  
المغامرة السيئة الآن، هو الآن يتقن إتقاناً شُبه تام هذه اللغة  
العربية التي تعلم على يديها فيما مضى أبجدياتها الأولى، وقال  
لها:

أصفي إلي... لا تعتمد علي منذ الآن. كل شيء انتهى بيننا.  
أنا متزوج وأحب زوجتي. دعيني ولا تفكري أبداً في رؤيتي من  
جديد. انسيني، هذا أفضل لنا.

بقيت تنظر إليه... مشدوهة، جاحظة العينين، إذن، ذاك  
صحيح! وانطفأ آخر أمل يبقيها على صلة بالحياة،

لقد نسيها. تزوج وحب الرومية، زوجته... وهي، هي من  
أحبته حتى النخاع، لم يبق لها إلا أن ترقد في زاوية وتسلم  
روحها مثل كلب منبوذ.

وتأججت ثورة بروحها الحالكة ضد الظلم الوحشي الذي  
ما فتئ يضيئها.

وانتفضت فجأة، مجترئة، متوعدة.

لم إذن جئت تبحث عني بعمق الوادي، بدوارنا، أنا كنت أعيش  
في سلام مع ماعزي وأغنامي؟ لم اتبعتي؟ لم وظفت كل  
ما عندك من حيلة وسحر لغوايتي، وجرجرتي، وأخذ عذريتي؟  
لماذا أعدت معي غدرا الكلمات التي تجعل مسلماً ناطقها؟ لماذا  
كذبت علي ووعدتني بأنك ستعود يوماً وتأخذني إلى الأبد؟ أه!  
إنني مازلت أحتفظ مع تراثي بالرسالة التي حملها إلي الضابط  
الشعاني...! (وأخرجت ظرفاً قديماً، وقد تمزق واصفر لونه،

ملوحة به كسلاح، كدليل دامخ)... نعم لماذا، أيها الرومي، يا ابن الكلب، تجيء مرة أخرى في هذه الساعة، مع زوجتك الملعونة ثلاثا، لتحتقرني وتهزأ بي تابعا إياي حتى إلى هذا الماخور الذي رميتني به، وتركتني كي أموت فيه ؟

قطع نحيب وسعال أجش كهفي حديثها فرمت في وجه جاك منديلها الدامي.

خذ، أيها الذئب، اشرب دمي! اشرب وكن سعيدا، أيها السفاح! كان جاك يتألم... خزي وأسف قد انتصبا أمام عينيه لكل هذا البؤس. ولكن ماذا في وسعه أن يفعل الآن؟ لقد اتسعت الهوة الآن أكثر من أي وقت مضى بينه وبين البدوية.

ومن أجل أن يسعدها، وأن يتخلص من المرأة الشقية إلى الأبد في الوقت ذاته، فكر أن قليلا من الذهب يكفي... فقدم كل نقوده إلى ياسمينه:

خذي، قال... أنت فقيرة ومريضة، يجب أن تعالجي نفسك. خذي هذه النقود القليلة... والوداع.

وتلعثم، فجأة، خجلا مما تجرأ على فعله.

وتطلعت ياسمينه في وجهه للحظات، متسمة في مكانها، معقودة اللسان، كما في الماضي، هناك، في بوادي تيمقاد الناشف، في ساعة الوداع المؤثرة الحزينة. ثم بفتة وبخشونة أمسكته من معصمه، ولوته ناثرة على الغبار القطع النقدية الصفراء.

كلب! نذل! كافر!

ومضى جاك مطأطئ الرأس، ليلتحق بالمجموعة غير بعيد هناك وراء الأكواخ....

وتهاوت ياسمينة على مقعدها، مهتزة بنحيب متشنج...  
أسرعت سمراء، الزنجية لسماع الضجة، وجمعت بعناية القطع  
الذهبية. احتضنت سمراء بذراعيها السوداوين عنق صديقتها.  
سَمينة، أختي، روعي، كفي عن البكاء... كلهم هكذا،  
الروميون، الكلاب، أولاد الكلاب... ولكن بهذه النقود التي  
أعطاك سنشتري فساتين ومجوهرات وأدوية.. فقط لا تقولي  
شيئا لألي وإلا أخذت منا النقود.

ولكن لا شيء بإمكانه مواسة ياسمينة.  
كفكفت دمعها، وفي حزن وصمت أخذت ثانية مكانها في  
وضعية الانتظار... انتظار من؟ انتظار ماذا؟  
لم تعد ياسمينة تنتظر شيئا غير الموت، وقد استسلمت  
لقدرها.

مكتوب، لا مجال للشكوى والانتحاب. بكل بساطة، يجب  
انتظار النهاية.... كل شيء تهاوى فيها وحولها. لا شيء بمقدوره  
الآن أن يدغدغ قلبها، أن يسعده أو أن يحزنه.  
غير أن ألمها كان عميقا... كانت تتألم أكثر لعلمها أن جاك  
لم يزل حيا يرزق وأنه قريب منها جدا... قريب وفي الوقت نفسه  
بعيد... بعيد!...

أه! كم تمنيت أن تراه ميتا، راقدا هناك في مقبرة الفرنسيين،  
خلف باب قسنطينة.

لكان بمقدورها أن تعيش ثانية - لا شعوريا - ساعات الماضي  
تلك الغامرة بالوجد والسحر، ساعات النشوة والحب في وادي  
تيمقاد الناشف.

لكان بمقدورها أن تذوق طعم الفرحة العذبة المهيمنة، عوض الإحساس بهذا العذاب المروع الذي تعيشه الآن...  
خاصة لو لم يحب امرأة أخرى، امرأة رومية!  
كانت تشعر بأن هذا الألم الفظيع سيقتلها: حتى الآن، وحده الأمل المكابر في رؤية جاك، وحدها الإرادة العاتية للعيش من أجل رؤيته كانا يعطيانهما قوة مزيفة لمقاومة السل الرئوي المدمر، السريع.

لم تعد ياسمينة سوى مجرد خرقة لحمية، مهجورة بلا مقاومة... إلا للمرض والموت. دفعة واحدة، انكسر فيها نابض الحياة.

لم تبق ذرة تمرد بروحها شبه الطفأة.  
مكتوب، ولا شيء يقف أمام المكتوب.  
في حوالى الساعة الحادية عشرة مر فارس صباثحي في إجازة، وتعجب أن رآها لم تزل هناك، الظهر مسنود إلى الجدار، اليدان متدلّيتان، والرأس متهدل.  
هاي سَمينة لماذا تفعلين هنا؟ أصعد؟  
ولما لم تجب، قفل الجندي الوسيم راجعا.  
حسنًا! قال متعجبا. فيم تفكرين بنيتي... أم أنك سكرانة؟  
أمسكها من يدها وانحنى عليها...  
وفي الحال، اعتدل المسلم ووجهه شاحب قليلا.  
لاحول ولا قوة إلا بالله! قال  
رحلت ياسمينة البدوية.





## النقيب

كل شيء كان بالنسبة إليه كشفا وتجليا في هذه الجزائر...  
باعث اضطراب -قلق تقريبا - السماء في غاية الصفاء،  
الشمس في غاية التألق، الهواء - حيث يشبه نفسا من كآبة  
حالة - يبعث على التراخي واللذة البطيئة، وقار المجتمع المسريل  
بالأبيض الذي يمنعك من ولوج الروح، النبات شديد الخضرة،  
المباين للأرض الرمادية أو المحمرة، المحجرة، ذات الجفاف  
الكثيب، والجذب الواضح... ثم شيء آخر يتعذر تحديده، لكنه  
مكدر ومثير، من حيث لا يدري، كل هذا شوش صفو أعماقه،  
وبجس فيها ينابيع إحساس لم تخطر له ببال قط.

بمجيئه هنا، بدافع الواجب، وبما أنه درس هذا الطب الذي  
يفترض أن يعول أمه الضريرة، وأخته الصغيرتين، وأخيه الصغير  
الhezil، كما قضى حياته وكما اعتقد حتى الآن، لقد خضع للحاجة  
ببساطة، دون انجذاب ودون افتتان بهذا البلد الذي يجهل.

غير أنه ومنذ تعيينه، لم يرغب في أن يقرأ شيئا من دون أن  
يعرف عن هذا البلد حيث استوجب عليه نقل حياته الصامته  
والهادئة، وحلمه الحزين المحدود، دون محاولة للتعبير، أبدا.

ربما سيرى، مستقلا، وحده، دون الخضوع لأي تأثير كان.  
من المفروض أن ينصت إلى تحذيرات رفاقه الجدد الذين  
احتفوا به وحزر أنهم متهكمون، حماة، مستخفون بشبابه الغض،  
مهتمون خاصة بتأثيرهم وبإدهاشه... غير مكترث استمع إلى  
شكاواهم وانتقاداتهم: لا مجتمع، لا عمل، ضجر كئيب. بلد

بلا سحر، الجزائريون خشنو الطبع، مشفولو الببال بالكسب فقط، والأهالي مثيرون للاشمئزاز، مزيفون، متوحشون، أدنى من أي انتقاد، مسخرة...

كل هذا لم يكن يثيره، ولم يخرج منه إلا بمعارف حول هؤلاء الرفقاء أنفسهم والذين سيعيش بينهم...

ثم وفي أحد الأيام، فجأة، - وهو ابن جبال الألب المشجرة والمخضوضرة، والآفاق المحدودة والجلية - يتوغل في السهل الكبير، المبهم والمتشابه على مد البصر، بلا مستويات أولى، تقريبا بلا شيء يستوقف النظر.

شعر في البدء بانزعاج، وخرج. كان يحس كأن كل ذلك المدى غير المتناهي، كل اللامحدود المستغلق من ذلك الأفق ينفذ إلى أعماقه ويتغلغل بداخله، يضني روحه، هي الأخرى كأنه يسربلها بغشاوة من ضباب وحزن غامض يتعذر وصفه. ثم يحس فجأة، مدى اتساع حلمه وامتداده، وهو يؤول إلى هدوء عارم، كما الصمت المطوق. واكتشف روعة هذا البلد، النور المنتصر بلا منازع، غامرا السهل والأرض المجذومة بالحياة، مبيدا الرتابة في كل لحظة... كان النور، روح هذه الأرض الحارة الشرسة فاتنا. وكاد يعشقه، لأنه بدا له واعيا، مستيقظا في ذلك التنوع المدهش الذي غمر عينيه.

عرف الخفة البهيجة، اللامبالاة الهادئة في المسجد والليلك الشفيف للصباحات... والتوتر، سحر ساعات الظهيرة الساطعة الأخاذ والثقل إلى حد الشجن، حيث تبدو الأرض كأنها تتأوه تحت وقع لفح النور الملتهب... وحزن المساءات الذهبية والقرمزية

العجيب، العذب كالزهد النهائي، وهي تهيأ للأسرار المتوقعة  
لليالي المظلمة الطافحة بالمجهول، أو المضيئة مثل فجر غامض،  
مفرقا الأشياء في ضباب أزرق.  
وأحب السهل.

تلال لا لون لها، متراكمة، متراسة، متموجة، مفيرة صبفتها  
في كل آن، خاضعة لكل تغيرات الضوء، لكن جامدة كأنها نائمة،  
تغط في حلم سرمدي، محاصرة القصر عديم الألوان، والذي  
تواصل قبابه الصغيرة العديدة ازدياءها الجم.

شوارع صغيرة متعرجة، محاطة بمنازل قديمة من الجص،  
مفصولة بخراب وتهدم، مع ظل نحيف، أحيانا لنخلة تعلق على  
الأشياء، ممتثلة هي الأخرى لسلطان الضوء، أماكن صغيرة،  
مؤدية إلى دروب صامته، تفتح فجأة، مخيبة للأمل على الرحابة  
الملتبهة للصحراء... برج أبيض تماما، منعزل في الرمال، حيث  
يمكن من شرفته مشاهدة التموج اللامتاهي للكثبان، وقد بدا  
في تجاويها العميقة مخمل النخيل الأسود... هنا وهناك ركائز  
آبار بدائية، عارضة كبيرة متجهة صوب السماء، وقد انحنت  
بواسطة جبل كأنها صنارة صياد عملاقة. وهناك، مهيمن على  
الكل في قمة الهضبة برج مربع ذو بياض ناصع يطوق الشفافية  
المحيطة بالمكان. يتلألأ وسط النهار الساطع، محتفظ في المساء  
بآخر الأشعة الحمراء للغروب: إنه منارة زاوية سيدي سالم.

في الضواحي المحجوبة بالكثبان، قرى معزولة، حزينة  
وقديمة، والتي كانت أسماؤها ذات وقع موسيقي غريب: البياضة،  
فم السحوم، أولاد علاندة، بير عراير...

كان الإحساس الأول الموجه حد الشجن لجاك هو إحساسه بالسجن بين كل هذا الرمل، جراء عزلته الكلية والتي قضاها على مدار ثمانية أيام، والتي اعتقد أنه أدرك فحواها، وقد بدأ يتعلق بها ...

كل هذا الفضاء الذي يفصله عن بسكرة، حيث ترك آخر المناظر المعروفة، والمألوفة إلى حد ما لديه. كان يبدو له كل ذلك ساحرا، مستبدا، عدائيا إلى حد اليأس تقريبا ...

نقيب، ضابطان برتبة ملازم أول مكلفان بشؤون الأهالي، ضابط من القناصين، وضابط صف من الفرسان الصبائحين، شيخ عربي، مومياء بالية في ثياب، هؤلاء هم رفقاؤه الجدد... بمجرد وصوله بينهم، اعترت قلبه برودة شديدة. كانوا لطفاء، متبرمين وبعيدين عنه، بعيدين جدا ... ووجد نفسه وحيدا على نحو مثير للرتاء، في خضم كآبة هذا البلد الذي أصبح يخيفه الآن. صامتا، مدعنا دوما في علاقته مع الرجال، من الانطباع الأول الغريزي الذي يحسه صادقا، وانطوى على نفسه. واعتبروه عبوسا وتافها، الأشقر الباهت ذا العينين الزرقاوين، صاحب النظرات التي تبدو كأنها تتجه إلى الداخل.

وما أتى على التفريق بينهم، هو إحساسه للوهلة الأولى، بلطافتهم بسبب عقلانيته المتطورة، إلى جانب تربيته المتأنقة والدقيقة.

درس بعناية اللغة الأجش والرخيمة، والتي أحب نبرتها منذ الوهلة الأولى، وأدرك انسجامها مع آفاق النار والأرض المتحجرة ...

هكذا كان يحدث رجاله الذين ينهضون عند مروره، مستكينين لتحيته، عيونهم في الأرض، وقلوبهم موصدة في قسوة ونفور. يجب على الأهالي، أيا كانوا، تحية كل ضابط، قال النقيب مالي، صلدا ومتأثرا بمهنة الصلابة مثل أو أكثر من رزقي التركي. عليك ألا تقرب هؤلاء الأقوام منك أبدا، وأن تلزمهم حدودهم. الصرامة، بلا تخاذل... الوسيلة الوحيدة لإخضاعهم. قاسيا، باردا، مدعنا بصورة عمياء، لأوامر مرؤوسيه، بلا أي سلوك عفوي دوما، سواء كان سلوكا طيبا أو قاسيا، كان النقيب مالي موضوعيا على الدوام. منذ خمس عشرة سنة وهو يعيش بين الأهالي، متجاهلين إياه، متجاهلا إياهم، دولاب محكم في آلة الهيمنة الكبيرة، كان يلزم معاونيه بالموضوعية نفسها، وبالبرودة الجليدية نفسها...

ثار جاك منذ الأيام الأولى، راغبا في أن يكون نفسه، وأن يتصرف حسب ضميره، الذي أدى به بسبب تديقه الوسواسي إلى عثرات، خيبات أمل، وحيرة مستمرة. رفع النقيب كتفيه.

انظر، قال لمساعدته، مصدر آخر للغم. الآخر (سابقه) يسكر ويسخر منا... وهذا جاء ليدخل تجديدا، ليغير كل شيء، ليطلق الأحكام وينتقد... أراهن أنه مشرب بأفكار إنسانية، اجتماعية، وغيرها... من النوع نفسه. لحسن الحظ أنه ليس إلا طبيبا وليس له أن يتدخل في الإدارة... ولكن هذا مزعج رغم ذلك... في النهاية، الآخر أفضل منه... أقل إزعاجا. لم يبق إلا أن يرسلوا لنا الصبيان! على الأقل لو كانوا جزائريين...

ومنذ ذلك لم يتوان النقيب في إظهار استنكاره المطلق للطبيب،  
صراحة، وبكل برودة.  
أحزن ذلك جاك.

لو لم يخضع البتة لحكم الرجال، فسيتألم أكثر من حقدهم،  
والأمن احتقارهم.

أكثر فأكثر، كان أكثر ما يشمئز منه في علاقته بالرجال،  
فضاظتهم واهتمامهم بأن يكونوا، يفكروا أو يتصرفوا ككل الناس،  
أن يحاكوا الآخرين، وفرض طريقة تفكيرهم، الموضوعية الضيقة  
على الكل.

كانت تدهشه على نحو بغيض، هذه اليد الموضوعية على  
حرية الآخر، وهذا التدخل في أفكاره وتصرفاته... غير سعيدين  
بكونهم منعدمين هم أنفسهم، كانوا يريدون إلغاء شخصيته،  
تقنين أفكاره، وتعطيل استقلالية أفعاله...

ورويدا رويدا، بدأ يصاعد من دعة طبعه الأولى الخجولة  
بعض الشيء والتواقة للرقعة، غضب أخرس، غل وتمرد. لماذا  
يقبل هو باختلاف الإنسان، لماذا يريد المناداة بالانبثاق الحر  
والخصب للفردانيات، وتعزيز تطورها التام، لماذا لا يملك أي  
رغبة في تشكيل الطبائع على صورته، وسجن الطاقات في  
الدروب التي يحلو له سلكها، ولماذا هذا التعصب، وهذا التحيز  
المستبد للرداءة؟

وبسرعة تكونت ثقافة عقله وطبعه في هذا المحيط الضيق  
جدا، حيث يشاهد كما في صورة مصغرة كل الفضاءات، التي  
فلتت منه في مواضع أخرى، وسط الزحام الأبقع المتحرك.

غير أن الاضطراب الكبير الذي أحدثه في روحه بلا مرحلة انتقال اكتشاف هذا البلد المختلف عن بلده، بدأ يهدأ تدريجيا، ولكن بشكل ملموس، وحيث كان يحس بكدر شديد ومؤلم، وبدا يكتشف كنوزا من السلم الجليل ومن الحنين الخصب.

في البدء لم يكن يريد أن يزور البلد الذي مكث فيه منعزلا على مدار ثمانية أشهر على الأقل، من طبع السائح لم يكن لديه لا الفضول ولا العجلة. كان يفضل أن يكتشف التفاصيل في هدوء، تدريجيا، وحسب مصادفات الحياة والجولات اليومية، عن غير قصد ولا هدف، ثم وبعد التراكمات التدريجية للانطباعات، بدأت بذهنه تتشكل الرؤية المجملة، وتكشف وحدها تلقائيا.

وهكذا نظم حياته كي يتألم أقل ويفكر أكثر...

في اليوم التالي لوصوله، قصد المكتب العربي صباحا، لزيارة مرضى مدنيين من الأهالي، مصطحبا معه شابا من القناصة، ذا جمال أنثوي، وعيون سحيقة ظليلة وذابلة كترجمان. وممرضا برتبة عريف، ذا وجه أحمر مبهج، ساخرا قليلا لمساعدته. في الساحة الضيقة والطويلة، كان حوالى عشرين نفرا من الأهالي ينتظرون، جالسين القرفصاء في وضعيات صبورة، متأنية.

وعندما ظهر جاك، وقف المرضى، بعضهم بعناء، وحيوه بلا خبرة تحية عسكرية.

النساء، خمس أو ست، رفعن أيديهن المفتوحة بفضاظة فوق رؤوسهن المنحنية، وكأنهن يلتمسن الصفح.

لاحظ بوضوح الخوف والحذر تقريبا في عيون أولئك الناس. مجموعة الرجال يرتدون برانس باهتة، وجوههم سمراء، ذات سمات شديدة، وعيون متقدة محمية بستائر وسخة وممزقة... أما وجوه النساء فكانت أكثر اسمرارا، متفضنة، العجائز درداء، ببناء ثقيل من صفائر شعر أبيض محمر بالحناء، من صفائر الصوف الأحمر، والأطواق والمناديل... أما الفتيات فقد كانت وجوههن مغرية وموصدة، ذات سمات قوية نسبيا ولكن نقية ومتجانسة، في سحنة داكنة، كانت عيونهن كبيرة مندهشة ووجلة... الكل ملفوف في ملحفة زرقاء داكنة، سوداء تقريبا، مثية على الطراز القديم.

بانتباه، مصححا بعدوية نظراته، وبساطة أسلوبه الودود والمطمئن، الخشونة التي يعطيها الترجمان الشاب لاستفهاماته، كان جاك يفحص مرضاه، مشفقا أمام كل ذلك البؤس، كل تلك المعاناة التي ينبغي عليه تخفيفها، كانت الزيارة طويلة... لاحظ التعجب التهكمي للعريف، وعدم اكرات الشاب الترجمان.

غير أنه، وعلى الرغم من ذلك الوضع وهذا التصرف الجديد بالنسبة إليهم من طرف الطبيب، لم يفتح الأهالي ولم يشرحوا له صدورهم، قرون من الحذر والشك والعبودية تقف بينهم.

وفي طريق مغادرته، أحس جاك بأن المهمة التي ارتضاها لنفسه جسيمة، ومرهقة... لكن لم يستسلم لليأس: لو تتراخى كل الأيدي أمام المهام المناطة بها، لو لا أحد يعطي القدوة فسينتصر الشر دوما مستعصيا. ثم إن جاك يؤمن بالقوة الحية للحقيقة، وبفضيلة العمل المخلصة للبشر.



في الحي، في المستشفى كان يقابل الوجوه المنغلقة والقاسية نفسها، والتي تشبه وصفته الطبية والخارجة عن الإنسانية. أذهله الفقر المدقع في حياتهم: الخدمة الميكانيكية، مجموعة من الحركات والإشارات، هي نفسها تتكرر على الدوام من دون تغيير، بسبب الخوف أولاً، ثم بسبب التعود ثانياً. وعدا هذا لم يتركوا لهم من الحياة الحقيقية، الشخصية غير شيئين: اختبار الكحول والمتعة الآنية، وبأثمان زهيدة في الدار العمومية، هناك في ذلك النطاق الضيق، كانت تنقضي سنوات حياتهم النشطة...

... ثماني مومسات، باليات، زاويات، يجلسن على المقاعد الحجرية، أمام شبه حانة... ملابس ذات ألوان فاتحة، ممزقة، تعلوها بقع، متسخة، لكنها معطرة للغاية. أجساد مترهلة نديبة، منخورة من شدة ما عجت بأيد عنيفة فوق تخوت الصوف الوسخة، ومن أجل بعض الفلسات عناق منهك في غالب الأحيان، يؤتى من أجل الحاجة، بلا أي صدى يذكر، زجاجات من سوائل قوية، تزود بحرارة مستعارة، متعة مزيفة لم يجدوها في أعماقهم، هكذا كان ركن الحياة الشخصية الذي يلجأ إليه أولئك الرجال الذين من أجل أمن الخبز والفرش، يبيعون حريتهم، آخر الحريات الإنسانية: أن نذهب أينما نريد، واختيار الهاوية حيث تكبد عذاب الجوع، ونهش البرد...

واعتقد جاك، في سذاجة أنه يشاركهم وجدانيا معاناتهم، ناسبا لهم الأحاسيس التي تمده بها حياتهم... واعتقد أن احتجاجهم المستمر ضد أقدارهم، إنما هو نتيجة لوضعيتهم

المزرية... ثم بعدها أصيب باندهاش واضطراب لاكتشافه أنهم لا يعانون بسبب عيشتهم على تلك الصورة...  
«تبا لهذه المهنة»

«اللعنة على هذه الحياة ثلاثاً!» يقولون...

«ثمة أيام عديدة أخرى لم تزل... كانوا يعدون أيام معاناتهم... ثم وبعد استرجاع حريتهم بعد انتهاء «عطلتهم»، ينخرطون، يتجندون ثانية، بلا تردد... فإذا صادف أن استمروا إلى غاية الستة أشهر، منزعجين، تائهين وسط معمعة الحياة، يعودون، واضعين رقابهم المدعنة تحت النير... كان جاك يرثى لحالتهم تلك، ويشفق عليهم من عدم تألمهم من انحطاطهم واستعبادهم. كان جاك قد حلم بالدور التمديني لفرنسا، كان يعتقد أنه سيوجد في القصر رجالا واعين بمهمتهم، مهتمين بتحسين أوضاع من يتولون كلية إدارتهم... غير أنه وعلى العكس اكتشف بسرعة أن هدف النظام الساري المفعول هو الحفاظ على الوضع الراهن.

عدم إثارة أي تفكير عند الأهالي، عدم إيحائه بأي رغبة، بأي أمل، خاصة في مصير أفضل. ليس فقط أننا لا نحاول تقريبهم منا، ولكن بالعكس نبعدهم ونبقي عليهم في الظل، هناك في الدرك الأسفل... أن نبقي حراسا لهم، لا أن نصبح مثقفين لهم.

أو ليس طبيعياً؟ إذ إن هؤلاء القوم، في وسطهم الطبيعي بالثكنة، لا يبحثون عن النظر إليهم قليلاً، وتقريب هذه الطبقة الدنيا، هذه الجماهرة المبنية للمجهول إلى نموذج إنساني،

حيث إنهم تعودوا أن يكونوا هناك لردع أي مظهر للتححرر... أي تجديد، فكيف لا يصفون حظهم بالحسن، وهو يخدم مصالحهم وطموحاتهم على السواء في حكم مدنيين، غريباء مرتين عن حياتهم، كمدنيين أولا، وكأهالي ثانيا، كيف لا يكونون أوفياء لمعيار الواجب العسكري: دك الفردانيات، تحويلها إلى انقياد مطلق، تعطيل أي تطور يمكنه بالتأكيد أن يؤدي إلى رضوخ أقل؟

واقترح أخيرا مستتجا: لا ليست مهنتهم هي حكم المدنيين... لا، لن يكونوا مربين أبدا... كل واحد منهم، بعد رحيله يترك الأشياء على الحالة التي وجدها عليها عند مجيئه، بلا أدنى تحسين، بدفع الأشياء إلى الأفضل.

إنه سلطان الجمود، وهذه المناطق مفصولة عن العالم الآخر، عن فرنسا الحية والمهتزة، وحتى عن الجزائر الحقيقية نفسها، بسور عظيم كسور الصين، يتعهدونه بالحماية ويعملون على رفعه أكثر فأكثر، ومحو إمكانية النفوذ منه إلى الأبد، منطقة النفوذ العسكري المنغلقة على ما عداها.

واعتراه حزن كبير حين تذكر هذه المهمة التي كان من الممكن أن تكون خصبة وتبددت.

وما زاد من مرارة استيائه هو عجزه الشخصي في تحسين أي شيء من حالة الأشياء تلك، والتي كان من خلالها يرى بوضوح الخطر الاجتماعي والوطني.

وهو يشغل وضعا لا شأن له بالتسلسل الهرمي الذي يسيطر على كل شيء، وهو قاعدة كل شيء، وقد وضع إلى جانب المكتب

العربي ذي القدرة المطلقة، بلا أي سلطة، توجب عليه البقاء في دوره كمتفرج خامل.

في البداية، كان يحاول أن يتكلم، في ثرثرة، لكنه اصطدم بجبل راسخ، أمام الاعتقاد الصادق والعنيد لأولئك الناس، ما جعله يصمت أمام تهكمهم.

«أنت شاب، يا حكيم، وتجهل كل شيء عن هذا البلد، وعن الأهالي... حين تعرفهم ستكون مثلنا»

نطق النقيب مالي كلماته تلك في تسامح متعجرف وتهكمي جمدت جاك.

منذ أن بدأ يفهم اللغة العربية، ويحسن التعبير بها قليلا، أصبح يحب أن يتمدد فوق حصيرة، أمام المقاهي المغاربية، ويصفي إلى أولئك الناس، ويستمتع إلى أغانيهم الحرة المنطلقة التي تشبه صحراءهم وتشبهه، كانت خطاباتهم بسيطة وحزينة يتعذر سبرها.

وشيئا فشيئا بدا السوفيون يتعودون على هذا الرومي، على هذا الضابط الذي لم يكن قاسيا، أو متعطرسا، والذي يحدثهم وبسمة صادقة جدا تملو محياه، والذي يجلس بينهم، وبإشارة يوقفهم حين يريدون الوقوف لتحيته، عندما يقبل...

لم هو هكذا؟

لم يكونوا يدرون ولا يفهمون.

لكنهم وجدوا فيه العون على كل معاناتهم، مجاهدا في صبر، خطوة، خطوة، حذرهم، عدم ثقتهم، وجهلهم.  
كان المرضى يتهافتون

على المكتب العربي، مطمئنين جراء شهرة طيبة الطبيب،  
وكانوا يبادرونه بالحديث خلال تنزهاته، يشوشون أحلامه على  
حصائر المقاهي...

ويدل أن يفرغ صبره، سجل ما في ذلك من تقدم ملحوظ  
وأثلج صدره. لم تعد صعوبة وظيفته تدرأه مطلقا، ولا نكران  
جميل الكثير.

كانت ساعات المساء، عند الغروب، هي ساعات راحة اللذيذة،  
وحلمه الكئيب الهادئ.

يذهب إلى مقهى مغاربي، مقابل للمكتب العربي تقريبا،  
وهناك، مستقيا كان يتأمل روعة السحر المتجدد يوميا، والمختلف  
دوما عن الساعة القرمزية.

أمامه، كانت بنايات البرج اللبنيّة تتلون في البدء باللون  
الوردي، ثم شيئا فشيئا تصبح حمراء تماما، بلون الجمر، بشكل  
خارق وباهر...

كانت كل الخطوط المستقيمة أو المنحنية التي تستجنب على  
أرجوان السماء، كأنها تخرج من الذهب... خلف القباب الملتهبة  
للمدينة، الكتبان الكبيرة تتأجج... ثم يخفت الكل تدريجيا، يعود  
إلى لونه الوردي المتقزح... تنزلق سحابة باهتة ذات لون أصفر  
فضي على نتوءات البنايات، وعلى قمم الكتبان.

تعزيزات عميقة للون الأسود، أروقة ضيقة بين الكتبان،  
تزحف ظلال الليل البنفسجية، تتسلق باتجاه القمم الملتهبة،  
تطفئ الحريق... ثم يفرق كل شيء في نور خفيف أزرق بحري  
عميق.

عندها ومن على منارة سيدي سالم الكبرى، ومن على الشرفات الصغيرة للمساجد الأخرى المتلفة، يرتفع صوت المؤذن، الأبح والآبد قبلا، والجاذب.

ومع هذا الصوت الحالم يتوقف آخر ضجيج إنساني للمدينة، التي بلا بلاط، وبلا سيارات، ومع كل مساء ينطلق هناك، في الشوارع الطللية للمصاعبة، بغرب الوادي، ناي بدوي هامسا حزنا سرمديا، قطعيا.

كان جاك يحلم.

هو الآن يحب هذا البلد. تكفيه مهمته اليومية لسد حاجته الملحة للحركة... وكل ذلك الحزن الكبير، وكل ذلك الغموض، الذي لهذا البلد سحره، يكفيه لسد حاجته للحلم...

بقي جاك عفيفا، لنزوعه إلى جمالية أخلاقية ما، ولخجله أيضا، ولكن هنا، أكثر بكثير من هناك بفرنسا، في خضم ذبول هذه الحياة الرتيبة، وفي خضم عزلته الروحية، كان يحس بالاضطراب العنيف للأحاسيس المتلهفة الشرهة.

لم يكن يتوقع هذا... أولا لأن الرغبة التي كانت تهيج فيه حدة كل الأحاسيس، كانت لذيدة مع كونها غير مشبعة. كان يبقي روحه منفتحة على كل الملذات، كل الارتعاشات.

لكن، عما قريب تنفلت أعصابه المتهيجة أمام هذا التوتر الشاذ والمرهق، أحس جاك بانزعاج مجهول السبب، واعترتة ثورة أعصاب يتعذر وصفها، معكرة عليه صفو طمأنينته.

اغتاظ من نفسه، قاوم ذلك التهيج الذي لم يخف طبيعته المادية جلها.

ثم وفي أحد المساءات، كان يتسكع في هدوء وبلا هدف في شوارع الأشاد الضيقة في شمال الوادي حيث كانت كل المنازل متهدمة وتبدو كأنها غير أهلة. كان يحب ذلك المكان المنعزل المغمور بالصمت والهجران. مات السكان ولم يتركوا وريثا، أو رحلوا إلى الصحراء، إلى غدامس أو بر الصوف أو أبعد من ذلك...

خيم الليل وذاك لم يزل جالسا على صخرة ويحلم. فجأة، أبصر في أحد تلك الأطلال نورا خافتا... وارتفع صوت ذو نغم، مصحوبا بصلصلة أسورة... صوت امرأة كانت بهدوء تغني... وبدأ له ذلك تعويذة سحرية، بسبب ما كان يطفح به إيقاع تلك الأغنية من حزن غامض غريب...

كان ريح سوف السرمدى يتمتم على الأنقاض، وفي هبوبه الفاتر اندست رائحة صمغ جاوة.

توقف الغناء وظهرت امرأة بمدخل منزل أقل قدما من المنازل الأخرى. طويلة القامة، نحيفة تحت ملحفتها السوداء، واستندت رشيقة على الجدار.

ورآها جاك، في الضوء الباهت الضارب للبنفسجي في غير وضوح.

ذابلة قليلا، كما لو أنها مرهقة، كانت جميلة جدا. رأته فارتعدت. لكنها لم تدخل الدار... وتبادلا النظرات طويلا، وشعر جاك باضطراب لا يوصف يجتاح كيانه.

- أرواح!... قالت بصوت منخفض

وتقدم، من دون تردد.

أمسكته من يده وقادته في ظلمة الأطلال إلى النور الضئيل المعلق على محجن حديدي مرشوق على الجدار؛ مصباح صغير قديم الشكل كان يشتعل مترنحا: نوع من مجمرة حديدية صغيرة مربعة حيث تسبح في الزيت فتيلة غليظة. وفي الساحة الداخلية تتفتح غرفتان مازالتا صالحتين للسكن. في إحدى الزوايا، قدر يغلي على نار من جمر. قط كبير أسود، ملتف ككرة بصرود، يحلم في ضوء النار الأحمر، محدثا هدير نشوة منخفضا. أجلسست المرأة جاك في مدخل الغرفة وبقيت واقفة أمامه، صامتة. أخذ جاك يديها، كانت يداه ترتعشان، وأحس بدوار لذيد. تتصاعد إلى حنجرته من صدره ضيق النفس حرارة سائفة، خانقة تقريبا... لم يحس مطلقا بسكر شهوة حسية حادة على هذه الدرجة من قبل وكان يتمنى أن يستمر هذا العذاب اللذيد إلى الأبد.

لكنه ومن دون أن يدري بادرها متلعثما:

لكن... من أنت؟ وكيف أنت هنا؟

كانت تدعى مباركة. زوجها فلاح فقير من قبيلة العشاشين، توفي... وهي يتيمة، ليس لها إلا أخ يعمل سقاء بمدن التل الكبرى، ولم تكن تدري أين تذهب بالضبط. وبقيت وحيدة، وهذا يعني أن تستسلم للقناصين والفرسان المنخرطين في الجيش الفرنسي، كانت قد خرجت وشريت معهم الخمر. ولما لم يرغب أحد فيها كزوجة، لجأت إلى هنا، في منزل أخيها وعاشت مع عمته العمياء. ولكسب قوت يومها كانت تبيع جسدها. والآن تخشى من المكتب العربي... أن تخضع له، الطبيب، وترجته



ألا يدخلها على الدار العمومية، وأن يحفظ سرها . طمأنها جاك .  
مباركة لا تتكلم كثيرا . كان سرد حكايتها بسيطا ومقتضبا ...  
كانت تبدو متوترة .

تركت جاك وذهبت لسد المدخل بالألواح والأحجار: أحيانا  
يأتي الجنود ليلا ...

ثم عادت وحملت المصباح الصغير إلى الغرفة الفارغة  
والعارية، على الطاولة، حصيرة وبعض الخرقات هي كل الأثاث .  
هنا وبغته، السعادة، تقريبا تلك التي حلم بها ... وبدت له الحياة  
بسيطة جدا ولذيذة جدا .

كانت مباركة تظل صامتة، في خضوع مطلق، ومع ذلك لم  
تتفتح . وكان ذلك الظل الغامض الذي تطوق به نفسها لاشعوريا ،  
والذي لا يقلق جاك البتة، يفتته . عندما كانت تحس بأنه يحلم،  
تلتزم الصمت، جالسة القرفصاء في الفناء الصغير أو متفرغة  
لأشغال المنزل . أو تغني، وكان صوتها الوئيد، العذب والأغن قليلا  
يشبه إيقاع حلمه .

كان يأتي إلى هنا كل مساء، هاريا من مطعم الضباط الممل،  
لقد أصبح مسكن هذه المومس العربية منزله . هل كانت وفيه له؟  
إنه لا يشك في ذلك أبدا .

لقد رضيت، منذ اليوم الأول، بنهج الحياة الجديد هذا،  
من دون أي اندهاش، ومن دون أي تردد . لا ينقصها أي شيء .  
والجنود السكارى، ما عادوا يجيئون مساء لشراء حبها، وحق  
ضربها وتعذيبها مقابل بعض الفلسات . لقد كانت مباركة  
سعيدة .

لاحظ جاك تطورا كبيرا في الحي، وفي المكتب العربي.  
لا حذر مكفهرها في النظرات، لا خوف ممزوجا بالضعفينة  
الهمجية. واعتقد صادقا أنه كسب هؤلاء الرجال.

صحيح أن هنالك بعض التقصير لديهم تجاهه، لقد أصبحوا  
أقل اندفاعا في خدمته، أقل إذعانا، عاصين في غالب الأحيان  
لأوامره، معترفين بذلك بلا خوف، ذلك أنه لم يرد استعمال حق  
العقاب.

كان جاك مستبصرا إلى حد بعيد كي لا يدرك ذلك. ولكن  
أوليس ذلك أمرا طبيعيا؟ إذا كان هؤلاء الرجال خاضعين  
لرفقائه حد الرضوخ والتخلي التام عن كل إرادة إنسانية، فإنه  
الخوف الذي يجبرهم على ذلك. لقد كانوا يسارعون لخدمته  
أكثر من طاعته... ولكن يفعلون ذلك بالإكراه أيضا. بينما  
حياله، حتى خدمات الرزقي، على الرغم من عناده وتجمده  
فإنها تبدو كمبادرات ومجاملات. حتى في نضاله المستمر الذي  
تعين عليه اتباعه ضد إرادة الأهالي السلبية، في عدم اتباع  
وصفاته الطيبة، وخاصة في عدم تحسين صحتهم، انتزع بعض  
الانتصارات. وحظي بصداقة الأكثر ذكاء بينهم، رجال الدين  
والمعلمين. باحترامه لإيمانهم، وبرغبته المتجلية في معرفتهم،  
وإدراك طريقة تفكيرهم ورؤيتهم للأشياء. لقد ظفر بودهم الذي  
فتح له قلوبا أخرى كثيرة، أكثر بساطة وأكثر غموضا.

لمَ الحكم بالرعب؟ لم زرع الخوف الذي لا يعدو أن يكون إلا  
شكلا من أشكال البغض والرعب. لم التقيد المطلق بالطاعة  
العمياء، لم السلبية؟

كان جاك يطرح على نفسه هذه الأسئلة ويصدق، يثير كل ذلك النظام تمرد. لم يكن يريد تربيته.

وفي أحد الأيام، دعا النقيب الطبيب إلى مكتبه.

أصغ إلي عزيزي الطبيب! إنك فتى يانع، وحديث عهد بالمهنة... وتحتاج إلى النصح... وإذن! يؤسفني جدا أن أقولها لك، ولكنك لم تزل بعد لا تعرف إلى أين تتجه هنا. إنك متسامح حد الإفراط مع الرجال... تفهم، كقائد حرب يجب علي السهر على حفظ النظام...

«لكن على الرغم من أنها أقل خطورة من وضعك إزاء الأهالي المدنيين، فإنك تلقائي وعشير فوق اللزوم معهم؛ ولا تملك الهم الدائم واللازم لترسيخ تفوقك، وسلطتك عليهم. صدقتي، إنهم كلهم سواء، ويحتاجون إلى أن يقادوا بيد حديدية. ومعاملتك يمكن أن تكون لها في المستقبل عواقب وخيمة جدا... إنها يمكن أن تزرع البلبلة في عقولهم المتوحشة والمتعصبة. تصدق إعلان وفائهم، لصداقة زعمائهم الدينيين المزعومة... ولكن هذا ليس إلا مجرد احتيال ومراعاة... احترس... احترس! إنني أقول لك هذا أولا من أجل مصلحتك. بعدها تعين علي التحسب لنتائج معاملتك... تفهم لي هنا كل المسؤولية!»

مجروحاً في العمق، متبرماً أكثر، اعترت جاك موجة من غضب وراح يشرح للنقيب - منذهلاً في البدء، مفتتما بعدها - أفكاره، وما نجم عن ملاحظاته.  
قطب النقيب حاجبيه:

حكيم، بهذه الأفكار، يستحيل عليك أداء خدمتك هنا. دعهم من فضلك. كل هذا، كلام كتب الأدب، الأدب الخالص. هنا بمثل هذه الأفكار، لن نستطيع إلا أن نثير عصيانا مسلحا في أقرب وقت!

وأمام عدم الفهم المحزن ذلك، أحس جاك - وقد لف جوانحه حق - باليأس.

احمل ما بدا لك من أفكار، يا حكيم، ولكن من فضلك، لا تضع مثل هذه المعتقدات حيز التطبيق هنا. لن أسمح بذلك، وفوق هذا، نحن قلة من الفرنسيين ومن المفروض بدلا من أن نحدث هذه الانشغاقات بيننا، يجب أن نتفاهم...

نعم، من أجل عمل مجد إنساني وفرنسي!  
صاح جاك.

في غطرسة وتعال رد النقيب:

نحن هنا من أجل الحفاظ على العلم الفرنسي عاليا وراسخا. وأعتقد أننا نقوم بأمانة وشرف، بواجب الجنود والوطنيين هذا... ولا يمكن أن نقوم بذلك بشكل آخر، من دون أن نفشل في أداء واجبنا. إننا جنود، جنود فقط. على كل حال، أنا قد حذرتك... غادر جاك النقيب، وقد تعكر سكونه البهيج، متبرما، منزعجا. وافترقا ببرودة.

ولكن جاك كان قوي السريرة، لم يغير شيئا في موقفه. ويوما بعد يوم، كان يحس بتفاقم عدائية رفقائه، بقيت معاملاته معهم كيسة، لكنهم يتقيدون بالحد الأدنى الأساس. كان تضايق.

وانطوى جاك أكثر على نفسه، وغدا المنزل الطللي الصغير ملجأً له. هناك، يستريح، وسط ذلك الديكور الذي يحبه؛ هنا كان بعيداً عن كل الذين بالبرج الذين ينفصون عليه حياته. لم تكن مباركة تسأله عن بواعث حزنه، لكنها جالسة عند قدميه، كانت تدندن الأغاني الحزينة المفضلة لديه، أو تبسم له...

هل تحبه؟ لم يستطع جاك أن يحدد ذلك بالضبط. لكنه لم يكن يتألم من ذلك الشك، لأنه أكثر ما يسحره وما يجذبه إليها هو ذلك الغموض الذي يلف كل كيائها، كانت بالنسبة إليه تجسيدا لبلدها وعرقها، بحزنها، وصمتها، وعدم قدرتها المطلقة على الفرح والضحك... ذلك أن مباركة لا تضحك أبداً.

في بسمتها، جاك يكتشف كنوزاً من الحزن واللذة. لأنه يحبها هكذا غامضة، مستعصية الفهم، مجهولة، إذ إنها بهذا الشكل تتوافر له الإمكانية الساحرة ليحب من خلالها حلمه الشخصي...

في ظروف مختلفة، ومع تعود أفضل على البلد وعلى العرق العربي، ولو ابتدأ حبهما الغريب في بساطة وبلا تعقيد خاصة، لكان بإمكان جاك ربما أن ينظر إلى مباركة من زاوية أخرى... شيئاً فشيئاً، استرجع جاك هدوءه وجرأته، ناسياً إنذار النقيب، والذي لم يعر تهديده أدنى اهتمام. وبتلذذ راح يغرف من ينبوع الحياة.

ها خمسة أشهر مرت بسرعة منذ مجيئه، هو الآن يتكلم لغة الصحراء، يعرف هؤلاء الناس، الذين بدوا له في البدء غامضين، لم يكونوا في الحقيقة إلا أناساً مثل كل الناس، لا أفضل

ولا أسوأ، أناسا آخرين فقط. وبالتحديد هذا ما كان يحبه فيهم، أنهم كانوا مختلفين، لا يتصفون بتلك الفجاجة الثقيلة التي طالما مقتها في أوروبا.

لم يعد أفق الرمل الرمادي المطوق للمدينة الرمادية يشجني جاك: لقد اتحدت روحه مع اللامتاهي.

في نعومة النسيم الممتعة، عند الفجر المشرق الجذلان، غادر جاك الأطلال. سرور عظيم يشرح صدره. كان يسير في فرح وحبور، في الشوارع التي بدأت تستيقظ، ثملا تملأه الحياة والشباب. وبدا له هذا البلد جديدا، كأن الغشاوة التي سريلت عينيه حتى الآن انقشعت. وتراءت له الوادي في محيط كئبانها الثابت، مدينة ذات بهاء وإشراق لا شك فيه البتة.

آه ما أروع البقاء دوما هنا، وعدم الرحيل أبدا! أن يؤدي مهمة رسالته الشاقة والمغرية في الوقت نفسه؛ ثم الانصراف في أوقات أخرى إلى عذوبة التأمل المرهفة، وأخيرا، وفي برودة الليل الاستسلام الكلي إلى سلطان ذلك الحب الذي لم يبحث عنه... لم يستطع جاك أن يقول رأيه في تلك المغامرة، في تلك المرأة، وفيما ما سينتج عن هذا الحلم الذي ارتسمت معالمه؛ لم يرد أن يحلل أحاسيسه، عندما أراد مصادفة أن يرتب في ذهنه انطباعاته الجديدة، تسارعت أفكاره، متلبدة، سريعة حد التفكير، وفضل أن يظل هكذا يحيا بحزنه، وهدوئه الكبير الذي ما عاد شيء يعكره...

وتراءى له أن الأيام والشهور بهذا البلد تمر على مهل وفي انسجام أكثر من أي مكان آخر، لقد سكنت عصبية مزاجه،

وعبقت روحه في صمت الأشياء، في هدوء، وبلا وجع. ولاحظ أنه أصبح شيئاً فشيئاً ميالاً إلى قلة النشاط، ولكنه استسلم لذلك بتلذذ...

وعزم على أن يطلب البقاء هنا دوماً، إذ إنه لم يحس بأي رغبة في رؤية مدن وأناس من أوروبا، ولا من الأرض الندية ولا من الاخضرار.

إنه يحب سوفه المضطرم والمهيمن، ويرغب في أن يقضي حياته على أرضه، على مهل، وفي هدوء بهي جليل. توجس جاك خيفة عندما، في نصف شهر يناير تقريبا، طلب النقيب مرة أخرى أن يحادثه. كان قائد الملحق هذه المرة، بارداً وعنيفاً.

لقد حذرتك عدة مرات، بأن سلوكك لا يتفق مع مقامك ووظيفتك. ليس فقط لم تقم أي اعتبار يذكر لنصائحي بخصوص علاقتك مع الرجال ومع زبائنك من الأهالي ولكنك ذهبت إلى إقامة علاقة مع امرأة من الأهالي، سيئة السمعة. لقد اتخذتها خليلية لك، تعيش معها، والآن تعلن علاقتك بها إلى درجة أنك تخرج في المساءات للتنزه معها. تقر بأن سيرة كهذه مستحيلة. لذا أطلب منك أن تقطع هذه العلاقة التافهة والمسيئة لهيبتك، ولهيبتنا جميعاً... أدعوك إلى أن تقطعها. هذا تصرف صبياني، ويجب أن ينتهي على الفور. وإلا أصبحنا مسخرة. تدرك بسهولة، كم هو مستهجن أن أكلمك على هذا النحو... ولكن اعذر لي قسوتي. لا يمكنني البتة السكوت على أمر كهذا... تدبر الأمر! ترتاد المقاهي

المغاربية إلى جانب المقلين الذين عودتهم على عدم تحيتك...  
لك صداقات مشبوهة مع رجالات الدين الإخوان... وهذه  
العلاقة، هذه العلاقة التافهة!  
وانتفض جاك محتجا.

لم يعد سيذا حتى على حياته الشخصية، وأفعاله خارج  
الخدمة! ولماذا هناك في البرج، للضباط الآخرين زنجيات، هدايا  
من رؤساء أهالي... ولماذا آخرون يأتون هنا ببغايا أوروبيات  
شنيعات، خرجن من أوساط رديئة من الجزائر أو قسنطينة،  
واللائسي يتربعن على مطعم الضباط، على الدائرة وحتى المكتب  
العربي، ويطالبن بأن تؤدي لهن التحية من أكثر الأهالي احتراماً  
ويطيعهن حتى رجال الفرقة!

هذا لا يلوث سمعة وشرف الضباط بأية حال من الأحوال...  
الزنجيات لسن سوى خادمات، هذا كل شيء. ولا يجب أن تهول  
من الأمر. أما بالنسبة للأوروبيات، فالعلاقة مع إحداهن  
لا تستوجب اللوم، وطبيعي جدا أن يلزم الأهالي سواء المدنيين  
أو العسكريين بالاحترام المطلق للفرنسيات. يمكنك أن ترى  
بنفسك الفارق الموجود بين علاقات هؤلاء الضباط غير المؤذية  
وعلاقتك الشاذة والمسيئة لهيبتك ومركزك.

- علاقتي، بكل تأكيد، أكثر أخلاقية وإنسانية، حضرة  
النقيب.

على كل حال سأكف عن هذه المناقشة المتعبة، وبما أنك تريد  
إرغامي، وجب علي أن أخطررك، أنه في حالة ما إذا لم تغير كلية  
من نهج حياتك، وأسلوب تعاملك، إذا لم تتقيد بالأعراف التي



يمليها العقل وضرورات الاحتلال، فسأضطر مرغما أن أطلب من رؤسائي تنحيته من منصبك.

كان جاك يعرف طبع النقيب الحاد والمتشدد، لكن لم يخطر على باله هذا الاحتمال المخيف الآن. عاد إلى غرفته وبقي متسمرًا مذعورًا. هل يغير حياته، ويصبح كالآخرين، يلغي شخصيته، ومبادئه، يتحول إلى آلة ميكانيكية؟ هل يعدل عن المهمة النبيلة التي ابتدأها... ويخرج مباركة من حياته... باختصار أن يلغي ذاته... فلم إذن، بعد هذا البقاء في هذه المدينة، التي ستغدو سجنًا كبيرًا.

وترأت له ضرورة رحيله قاسية، مثل انتزاع جزء من روحه وجسده.

لا، لن يرضخ أبداً، سيظل ذاته... واجتاح قلبه انزعاج موحش. لكن وبكل شجاعة لم يغير شيئاً من نمط حياته.

ألم آخر كان بانتظاره. فقد لاحظ أن أصدقاءه من رجالات الدين وكبار الأهالي يتخرجون في حضرته، ولا يسعدون بزياراته كما في السابق، لا يحاولون إمساكه، واستمالته. لقد أصبحوا فاترين وموقرين. بالمقهي، وعلى الرغم من اعتراضه، يقفون لتحيته، وتتفرق الجماعات عند قدومه.

لقد تهشم سحر حياته... ومن جديد أصبح غريباً... أيقظ شيء ما خفي وخبيث كل الشكوك وكل المخاوف.

وانهارت مهمته، غير المنتهية على نحو محزن، فجأة مرمية على الأرض بكل خشونة وقسوة...

أصبح المرضون تهكميين في وضوح، واتسمت معاملتهم، أحيانا، بدلا من طيبة القلب المنشرح التي زرعا فيها - بالوقاا وشفه الازدراء.

الأصءقاء، رفقاء النزهاء البعءء، فرسان الأهالى، المكاب العربى، كلهم ءحصنوا بصمء ءقيل، وبالأخضوع الفاءر للأيام الأولى. بقاء مباركة

لكن يقين ذلك الحلم الذى ءرعرع منءشيا منذ نصف سنة انءهى، انهار كل شىء، وءط اءءضار سعاءءه، مكءرا عليه هءوء منزله الطللى الفاءن.

كان ءاك يقضى الساعاء المريرة فى ءءكىر فى ءلك الأيام السعءءة، الملقاة إلى الأءء، وفى أسباب فشله.

كان يءرك أنه يكفى للنعيب ولعاونيه أن يءكروا أمام ءبار الأهالى كم أنهم يسءءكرون سيرة الطيب، وكم هو غير مرعوب فى علاقاه الاءءماعية كى يكونوا مرعمين فى رضوخهم المءلق على ءركه...

وانفءر ءزن شءءء فى قلب ءاك. لءء عءل ءءء طارئ بانءيار كل ما شءءه من أجل أن يعىء فىه ويفكر به. كانت مباركة ءذهب أءانا لزيارة صءيقة لها، مءزوجة فى المصاعبة، وفى اسءءءار وطمىء الرعاع، أبقت على وءهها سافرا.

وفى إءءى المساءء وهى عاءءة من ذلك الءى البعءء عن ءيها، شءمء من طرف عمر بن ضىف الله مسىر الماخور... وراء مباركة بعنف وبلا ءوف... وءءءلء نسوة الماخور، فاقتاء البوليس مباركة على السءن...

وبحجة الدعارة المخالفة للقانون، سجنتم خمسة عشر يوماً  
وقيدت بالسجل. احتج جاك بعنف، مفتماً وهو يرى حلمه يمرغ  
بالطين.

آه! لعنك الله، هي عشيقتك؟ لم أكن أعلم بأنها هي... آه كم  
هذا مزعج! صاح النقيب. لكنك ترى أنني كنت على حق عندما  
حذرتك! يا لها من فضيحة... الآن، الكل يتحدث عن عشيقة  
الطبيب. ما العمل الآن؟

«لن أستطيع أن أردّها إليك، ذلك أنه بعد هذه الحادثة لو  
عدت إليها، فستكون الفضيحة المجلجلة. آه! لو استمعت إلي!»  
رد جاك وهو يرتعد من شدة الانفعال والغضب:

إذن، ستتركها بالسجن... إلى متى؟  
تعلم أن الدعارة مقننة بشدة... هذه المرأة، لا يمكنها الخروج  
من السجن إلا للدخول إلى الدار العمومية.  
لم تعد عاهرة وهي تعيش كزوجة معي.

لقد وجدناها بجانب الدار العمومية، سافرة الوجه، وهي  
تحدث الشغب الشائن... لقد قبض عليها... المعلومات التي  
بحوزتنا عنها تؤكد أنها لم تتوقف عن ممارسة مهنتها الساقطة...  
تعقل يا حكيم. هذه المرأة لا يمكن أن ترد إليك، لمصلحتك... أرى  
أنك رومانسي فوق اللزوم... ماذا يمكنني أن أفعل، كن عاقلاً  
تعصب الطبيب، لكنه كان يحاول أن يحافظ على نبرة متأدبة،  
متلطفة...

ثم فجأة، وقد أتعبته تلك المناقشة السمجة، اتخذ جاك قراراً،  
الوحيد الذي بقي له.

إذن، حضرة النقيب سأطلب - واليوم، ببرقية - تحويلي لأسباب صحية...

لمعت في نظرات النقيب العصية على السبر، ومضة فرح. أنت محق ربما. أدرك كم كان مقامك بالوادي متعبا وشاقا بأفكارك، التي لن أشك في أنها ستتغير قريبا... سنفتقدك بالتأكيد كثيرا، لكن الرحيل أفضل بالنسبة إليك.

نعم، أخيرا سأغادر وأنا على يقين تام، راسخ من الآن فصاعدا، بالفساد المطلق والخطر المتفاقم لنظام إدارتكم الذي سيمس القضية الفرنسية.

هز النقيب كتفيه:

لكل أفكاره، يا حكيم... في النهاية أنت حر.

نعم، أريد أن أكون حرا!

وأنتظر بفارغ الصبر الأمر بمغادرة هذا البلد الذي أحبه كثيرا. والذي كنت أتمنى البقاء فيه أبدا.

والغريب، أنه منذ أن عرف أنه سيرحل بدأ لجاك أنه غادر فعلا سوف، وأن هذه المدينة وهذا البلد الذي يمتد هنا حوله، مثل أي مدينة أو بلد آخر، لكن بالتأكيد ليس سوفه المتألق المشرق الموحش... كان ينظر إلى تلك المشاهد الطبيعية بالإحساس الحالم والفاتر نفسه الذي نشعر به ونحن نشاهد ميناء مجهولا، حيث لم ولن نذهب أبدا، من على جسر باخرة، أثناء توقف قصير.

استطاع بواسطة هدية للشاوش أن يدخل للحظة إلى زنزانة مباركة... كانت له خيبة جديدة أخرى، فقد استقبلته بوابل من

اللسوم المرير، والدموع، والنحيب. إنه لا يحبها، وهو ضابط يقدر على كل شيء، تركها تسجن، وتقيد بالسجل... شتمته، مستغلة، عدائية إلى الأبد هي الأخرى.

غادرها جاك.

ها انتهى كل شيء...

كان يرغب في أن يرى مرة أخرى على الأقل منزل الأطلال الصغير، حيث عاش السعادة الحقيقية.

لأنه الآن وحيد، ولأن كل ما اعتقد أنه متين ودائم أصبح يشبه الآن هذه الأطلال الغامضة، الرمادية، عديمة الجدوى! كان جاك يتألم. مستسلما سيرحل، لأنه أحس بأنه لا يستطيع أن يبتدئ هنا ثانية حياة تافهة، مفرغة من أي معنى.

تحت سماء الربيع الرحبة، الصافية والمضيئة، تحت ضنى الصيف الثقيل، تمتد كئيبان سوف متموجة، لازوردية في الأمواج البعيدة... أحب جاك أن يغادر المدينة التي أحب، في الوقت الذي أحب، عند غروب الشمس. وللمرة الأخيرة كان جاك يشاهد كل ذلك الديكور الذي لن يره أبدا، وانقبض قلبه.

للمرة الأخيرة، كان مشهد الفتنة الكبرى للمساءات المشرقة يمر أمام عينيه الطافحتين بالحنين...

عندما مر على كئيب سي عمر الكبير، وتوارى الوادي خلف الجدار الشاهق للرمال القرمزي، أحس جاك باستسلام حزين يبعث السكينة في قلبه... إنه هادئ الآن وهو يشاهد الضيعات الصغيرة الحزينة، والزرائب الصغيرة المبنية من سعف النخيل، المنازل ذات القباب، تتمدد بإفراط الظلال الضاربة

للون البنفسجي لجوادي الفارسين وقد احمر في ضوء المساء  
الأحمر.

وخطرت بباله فجأة فكرة أن الأمر بلا شك قدر على هذا  
النحو، أن تجهض كل مشاريعه هكذا، وأن تنتهي أحلامه هكذا،  
وأن يرحل منفيًا، مطرودًا تقريبًا من كل أماكن الأرض التي يذهب  
إليها كي يعيش ويحب.

فعلا، لم يكن يشبه الآخرين، ولم يرد أن يطأ طئ رأسه تحت  
نير رداءتهم المستبدة.

## تاعليث

كأنها تعيش حلما جميلا، تذكر تلك الأيام السعيدة، تلك التي قضتها بين أحضان سفوح التلال النشوى التي سريلتها الشمس رداء ذهبيا، هناك في أسفل تلك الجبال الشامخة التي تشقها المضائق السحيقة والمنفتحة على دفاء الأفق الأزرق... كانت هناك غابات الصنوبر والبلوط العذراء، صامتا متوعدة وشجيرات كثيفة صغيرة تتصاعد منها أنفاس حارة في صفاء الخريف وثمالة الربيع العنيفة... كانت هناك شجيرات الرند الخضراء، ونبات الغار الوردي ذو النجمات يحضن ضفاف الأودية الهادئة وعبر بساتين التين والزيتون... يرسل السرخس الشفيف ضبابه الخفيف على الصخور الحمراء المبقورة قرب شلالات الجواهر، فتتبعث المجاري جذلانة تحت الشمس، أو تصرخ مدوية في ليالي الشتاء المخيفة.

راعية غنم كانت.. طليقة نشوى.. كم مرحت هناك وسط حمام من الضياء المنعش السرمدي، أطرافها القوية عارية تقريبا تحت الشمس.

ها هي الآن تذكر - ورعشة تعترها - حفل الزفاف البهيج، حين زفوها للرزقي أو السعيد ذاك الصياد الوسيم الذي أحبت. وبدا لها، وهي تسترجع تلك الذكريات، أن تلك الأيام الخوالي قد انقضت بلا هموم وبلا أحزان، وكل ما فيها تعطر ببلسم عذوبتها.

وها قد حطت ساعات الألم الدكيئة رحالها..

فجأة، تهشم كل شيء.. دُكَّ دكا.. تبتد، كما تبتد الريح زوبعة  
عابرة على الدرب الظليل. في إحدى الليالي أودت طلقة بندقية  
بحياة الرزقي.. أطلقها لصوص خيول... كان حدادا فظيلا..  
حداد الروح والدم.. حداد اقتلاع.. وجنون تمزيق الفساتين،  
ونذب الخدود الدامية وشد الشعر المبعثر.  
صرخت كما تصرخ إناث البراري المتوحشة ولذعة الرصاص  
تخترق روحها...

وها بعدها أطفالاً والدها شمعته للأبد.. ذات شتاء بارد مضغ  
بالبؤس والفقر والخوف، أثناء العاصفة التي ألفت أثقال ثلوجها  
على سقف القوربي<sup>(١)</sup> الكوخ الآيل للسقوط... وبعد شهور تزوجت  
زونية أم تاعليث من تاجر انتقل بهما راحلا إلى مدينة الجزائر  
العاصمة.

وها هي تاعليث الآن سجينة هناك، داخل ذاك الديكور  
العربي المغلق كأنه سجن عالية أسواره المطلية باللون الأزرق  
الباهت، مسيج بصف من أعمدة كأنها أعمدة دير، وسط قهر  
مدينة الجزائر التركية والعربية الباعث على القلق، والتي كلها  
ظلمة وريبة قاتلة... كانت تختق هناك في ظل ذاك الظل المؤذي  
بين نساء يتكلمن لغة أخرى يسمينها تهكما القبائلية.

هناك، ابتدأت قصة أخرى مع عذاب جديد آخر: فزوج الأم  
يريد أن يزوجها ثانية، يهبها لشريكه الذميم الطاعن في السن.  
وثار جسد المرأة العاشقة على هذه الزيجة، رفضتها بكل عنفوان.  
أنا أحب الرزقي

(١) القوربي Le gourbi: هكذا بالفرنسية في النص الأصلي، وهي كلمة باللهجة الجزائرية  
تعني الكوخ.



كانت تجيب أمها حين تحدثها عن شبابها وجمالها لتحثها على القبول.

تلك كانت الحقيقة. لقد أحبت الزوج الحبيب المتوفى، ومازالت جوارحها تحفظ ذكراه اللذيذة المخضبة بالألم العذب. أمام إلحاح أمها المثير للغضب وخشونة زوج أمها الذي كان يضربها بقسوة، أحست تاعليث بأن مقاومتها اليائسة بلا جدوى. ثم أليست تحب الميت؟ ألم تكن مخلصه له؟ ألا تحس بأنها وحيدة وغير قادرة على الحب ثانية؟

وجهها الأسمر، ذو العينين الواسعتين اللتين تشبهان اللبنة الحزينة، والجبين الموشوم والشفاه العذبة، تصلب وانكمش، تماهى إلى نحول مرضي. ولع بريق غريب في نظرتها الداكنة. ذات يوم قالت لزوج أمها:

إذا كان هذا قدرتي، فأنا طوع أمرك...

وظلت تنتظر في صمت أكبر من ذي قبل وشحوبها يتفاقم أكثر.

وكانت الليلة الأخيرة قبل موعد الزفاف، وبعد أن هدأ الليل وخفت ضجيج صبايا البيت، كانت تاعليث ووالدتها وحدهما. أمها! همست تاعليث وبسمة غريبة تعلو شفيتها، أرغب في أن تلبسيني وأن تزينيني كما سأكون غدا، كيما أرى هل مازلت أبدو جميلة وأنا التي ذبلت عيناها جراء البكاء.

سعيدة بما اعتقدت أنه تجدد فرح صبيانني، راحت زوينة مسرعة تلبس تاعليث أقمصة الشاش المفضض و«قندورات»<sup>(١)</sup>

(١) قندورات gandouras: هكذا باللاتينية في النص الأصلي كلمة جزائرية وتعني فستان البيت أو فستان العرس أو جبة وغالبا ما تكون مطرزة وهي الجلالية أيضا.

فساتين الحرير فاتحة الألوان، والمناديل اللامعة... وتابعت تثقلها بكل حليها القبائلية: على رأسها ذي الشعر الطويل المصبوغ، وتثبت تاج الفضة المزين بالمرجان، وتحيط جيدها العاري النقي بعقد من زجاج ومن قطع ذهبية ومرجانية على الطوق المرصع. ثم شددت خصرها المشقوق بحزام فضي وقلدت معصمها المدورين بأساور، وكعبها بخلاخل رنانة. وغمر طوق من العجين المجفف الفواح جسد تاعليث بأريج دافئ، وجلست زوينة القرفصاء تلفها بنظرات حانية وهي تكرر:

ما أجملك يا عين الغزال!

تناولت تاعليث مرآتها وظلت تنظر إلى نفسها ونشوة غامرة تعتربها طويلا طويلا إلى درجة أن زوينة غفت عيناها. وإذا ذاك تجردت تاعليث من خلاخلها الرنانة وخرجت إلى البهو بيضاء.. ناصعة البياض تحت الضياء المائل للقمر والمنزلق على البلاط تاركا الأعمدة في الظل الأزرق.

وهمست تاعليث كما لو أنها في حلم:

لا بد أن الوقت تأخر!

محمومة، مرتعشة، وضعت جبينها الملهب على المرمر البارد لأحد الأعمدة...

واعترأها ألم لا يطاق، وهزت جسدها دفقة من بكاء أخرس من دون أي عبّرة. قرقرت حلي المرجان التي تزين تاجها على الحجر قرقرعة خفيفة... ارتعدت تاعليث واستوت من جديد شاحبة.. في غاية الشحوب.

محمومة، مرتعشة، وضعت جبينها الملتهب على المرمر البارد  
لأحد الأعمدة...

واعترأها ألم لا يطاق، وهزت جسدها دفقة من بكاء أخرس  
من دون أي عبّرة. جلجلت حلي المرجان التي تزين تاجها على  
الحجر جلجلة خفيفة... ارتعدت تاعليث واستوت من جديد  
شاحبة.. في غاية الشحوب.

كانت البئر العربية في زاوية تففو هوةً ضيقة بلا قاع. انحنت  
لحظة على السر الدكين للثقب... ثم استقامت وصعدت على  
حافة البئر القديمة. في لحظة بدت في ذلك الوضع مستقيمة  
جدا تحت ضوء القمر، كمعبودة فضية. أغمضت عينيها، همست  
بكلمات تقية من صميم الإسلام، حركت شفيتها وتهاوت في  
الظل السحيق، تتبعها هفهة الحرير وجلجلة الحلي.

ارتطام أخرس، بقبقة بعيدة: يلحق الماء الأسود المارد الجدران  
الغروية... ثم لا شيء.. الصمت الرهيب.  
تاعليث المزدانة عروسا اختفت.

اتهمها الجميع بالفرار إلى مواخير القصبه لتبيع الهوى. لكن  
زينة الحائرة، الشائخة أدركت الحقيقة، وتوسلت حتى ينزلوها  
بحبل إلى قاع البئر. وأمام إلحاحها الذي بدا كأنه الجنون، أمرت  
السلطات بغلق البئر. وهكذا اقتلعت زينة أظفارها ولحم يديها  
على الصخر وهي تصرخ لأيام الاسم العزيز:

تاعليث!

بحثوا عنها في الخارج بلا جدوى. فقررروا فتح البئر من  
جديد، تدلى رجل على القعر ليجد تاعليث تطفو فوق الماء...

أخذوا الجثة.. وضعوها على البلاط الأبيض فأنارت شمس  
الأصيل السحرية ومضات وردية الجواهر التي لم تزل تطوق  
ذاك الجسد المنتفخ المخضر وكل تلك القذارة الكريهة التي لم  
تكن إلا تاعليث.

## اليد

هي ذكرى تعود إلى أربع سنوات خلت عن مدينة سوف القاسية والمؤتلفة، عن تلك الأرض المتعصبة والرائعة التي عشقت، والتي كادت تأخذني إلى الأبد، في إحدى مقابرها المفتوحة على الفضاء الرحيب والخالية من كل حزن وأسى.

كان الوقت ليلا، بشمال مدينة الوادي على طريق البهيمة كنت وأحد فرسان الأهالي المجندين بالجيش الفرنسي عائدين من سباق للخيال إلى إحدى الزوايا البعيدة، والصمت يخيم على كل المكان.

آه من الليالي القمرية تلك على صحراء الرمال، ليال وهل تضاهيها ليال روعة وسحرا وغموضا؟

فوضى الكثبان الرملية، والأضربة والصورة الظلية لمنارة سيدي سالم البيضاء المطلة على المدينة، كل شيء يتلاشى، ينصهر يتبدد ويأخذ مظاهر شفافة وخيالية.

الصحراء حيث تتساب الأضواء الوردية، والأضواء الخضراء الشاحبة والأضواء الزرقاء، وانعكاسات الأضواء الفضية، هي ذي الصحراء تسكنها الأشباح، لا كخطوط كفاية واضحة ودقيقة، ولا أشكال جلية في سطوع وتألؤ الرمال الغامر.

كانت الكثبان الرملية البعيدة تبدو بخارا قد تجمع في الأفق والقريبة تتلاشى في السطوع اللامتاهي المنسكب من السماء. مررنا في درب ضيق على وهدة رمادية صغيرة وقد زرعت حجارة مستقيمة: مقبرة سيدي عبد الله.

كان الجوادان يتقدمان دون إحداث أي جلبة فوق الرمال الجافة والمتحركة. فجأة لمحنا شكلاً أسود ينزل المنحدر المقابل للوهدة متجها نحو المقبرة.

كان الشكل امرأة وقد تسربت بلحاف السوفيات<sup>(١)</sup> الأسود المصنوع من الجوخ الإغريقي.

مندهشين، قلقين توقفنا ورحنا نتبع خطواتها بأعيننا.

أملودان استقاما على تلة يؤشران لقبر حديث جدا.

جلست المرأة على ركبتها بعد أن اقتلعت النخلتين الصغيرتين وقد بدا وجهها الآن في ضوء القمر منكمشا تعلوه تجاعيد السنين. وراحت تحفر بسرعة بيديها وسط الرمل كأنها أحد حيوانات الصحراء الحفارة.

كانت تؤدي مهمتها تلك بهمجية غريبة.

وانفتح الثقب الأسود سريعا على نومته وتعفنه المجهول الذي يخفيه.

وأخيرا انحنى المرأة على القبر الفاجر فمه. وحين استقامت، كانت تحمل إحدى يدي الميت وقد قطعت على مستوى المعصم، يد مسكينة جاسئة متيبسة وشاحبة.

وعلى عجل، ردمت العجوز الحفرة وأعدت الأملودين الأخضرين، ثم أخفت اليد المقطوعة تحت لحافها واتخذت طريق المدينة قافلة.

مدعورا لاهثا أخذ الفارس بندقيته وجهازها للرمي.

أوقفته قائلة:

لماذا؟ أيهمنا هذا الأمر؟ الله وكيلها!

(١) السوفيات: نسبة إلى وادي سوف إحدى مدن الصحراء الجزائرية.

آه! إلهي، إلهي. راح يكررها الفارس مصدوما.

دعيني أقتل عدوة الله وعدوة عباده!

خبرني قبل ذلك ما الذي يمكنها أن تفعله بهذه اليد ؟

آه، لا تعلمين! إنها ساحرة ملعونة. بيد الميت ستعجن خبزا.

ثم تطعمه بعض التعساء. ومن تناول طعاما أعد بيد ميت مأخوذة

ليلة جمعة يكون فيها القمر بدرا، يتجفف قلبه ويموت موتا

بطيئا. سيفدو باردا غير مكترث بالحياة وسيستولي على روحه

ضيق رهيب. ثم يذبل ويموت. فليحفظنا الله من هذي الشرور!

وفي شعاع الليل الهادئ اختفت العجوز، إلى مهمتها

الظلامية<sup>(١)</sup>.

وفي صمت غامر اتخذنا طريقنا باتجاه مدينة الألف

قبة؛ قباب صغيرة ودائرية يخيل للرائي من أفق لآخر أنها امتداد

لظهر العرق العملاق، مدينة عملاقة من مدن ألف ليلة وليلة

الشفيفة وعفارتها وسحرتها.

---

(١) هناك نسخة أخرى مخطوطة عن هذه القصة منقولة بالغولة La Goule.





حسن دواس

## المترجم في سطور

- من مواليد 1966 - الجزائر.
- خريج معهد اللغات الحية الأجنبية، قسم اللغة الإنجليزية بجامعة قسنطينة، حاصل على شهادة الماجستير في الأدب المقارن، شعبة أدب الرحلة، جامعة قسنطينة، ويحاضر حاليا دكتوراه في النقد.
- عمل بالتعليم الثانوي، أستاذا للغة الإنجليزية، ثم رئيسا لمكتب دعم الإبداع والفنون بمديرية الثقافة لولاية سكيكدة، ثم مديرا للمركز الثقافي جمال رمضان، سكيكدة.
- عضو في العديد من الجمعيات والروابط الثقافية، وترأس المكتب الوطني للترجمة برابطة إبداع الثقافة، سكيكدة، من العام 1995، ورئيس المكتب الولائي لرابطة إبداع الثقافة الوطنية.
- حاصل على العديد من الجوائز.
- له العديد من الإصدارات في أكثر من مجال مثل: الشعر، أدب الطفل، الترجمة والدراسات.
- شارك في العديد من الملتقيات والندوات الأدبية والفكرية الوطنية والعربية.

### د. ليلى عثمان فضل

## المراجع في سطور

- من مواليد العام 1950.
- أنهت دراستها الجامعية في العام 1972، حاصلة بذلك على ليسانس في آداب اللغة الفرنسية بجامعة عين شمس - كلية البنات - جمهورية مصر العربية.
- حازت درجة الدكتوراه في العام 1985، وكان موضوع أطروحتها «التجربة الإنسانية في الرواية الفرنسية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. مرحلتا الطفولة والمراهقة».
- عملت أستاذا للغة الفرنسية بجامعة الكويت.
- راجعت عدة أعمال لسلسلة «إبداعات عالمية، منها: «مختارات شعرية من المستغال»، «طام طام زنجي» تأليف ليوبولد سيدار سنغور، ورواية «عشيق الصين الشمالية» تأليف مارغريت دوراس.



إصدارات قادمة



الغامرة الغامضة

(رواية)

تأليف: شيخ حامد كان

ترجمة: محمد سعيد باه

مراجعة: د. وطفى هاشم حمادي

ترجمت عن الفرنسية

© 2015 by Ketab.n



# ما صدر من هذه السلسلة

نون والقلم	318	تأليف : جلال آل أحمد
سيرتي سامبيجي	319	تأليف : تشاندرا سيهار كامبان
أيام بورمية	320	تأليف : جورج أرويل
ست وصايا للألفية القادمة	321	تأليف : ايتالو كالفينو
السكرتير الخصوصي	322	تأليف : ت. س. إليوت
قصص برازيلية	323	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
شذرات من خطاب في العشق	324	تأليف : رولان بارت
لون الماء	325	تأليف : جيمز ماكبرايد
وجهان لهواء	326	تأليف : أمريتا بريتام
المنزل ذو الشرفات السبع	327	تأليف : اليخاندرو كاسونا
من الأدب الباكستاني الحديث	328	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
مختارات من القصة التركية المعاصرة	329	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
مسرحية محكمة العدل في بلخ	330	تأليف : بهرام بيضاني
مطبغ - خيالات ضوء القمر	331	تأليف : بنانا يوشيموتو
الطباخون الأشرار	332	تأليف : جونتر جراس
الجرة المكسورة	333	تأليف : هاينرش فون كلايست
شمل تشابه ضائع	333	تأليف : أندريه شديد
حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	334	تأليف : فلاديمير هلباتش
زهرة الصيف	335	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
طام - طام زنجي	336	تأليف : ثيوبولد سيذار سنفور
البيروح	337	تأليف : نيكولو ماكيافلي
متزل النور	338	تأليف : جوهر مراد
كثبان النمل في السافانا	339	تأليف : تشنوا أشيبي
أناطول وجنون العظمة	340	تأليف : أرتور شنيتسلر
غرام ميتيا	341	تأليف : ايغان بوئين
أرنجندن والحارس الليلي	342	تأليف : فرمي أوسوفيان
ورقة في الرياح القارسة	343	تأليف : تنغ - هسغ لي
مدرسة الدكتور	344	تأليف : إيريش كستلر
رسائل عيد الميلاد	345	تيد هيوز
حكايات وخرافات أفريقية (1)	346	تأليف : سليمان جيفو ديوب
المطفل الملك		
مسرحية عذراء أورليان	347	تأليف : فرديريش شيللر
حكايات وخرافات أفريقية (2)	348	تأليف : سليمان جيفو ديوب



# ما صدر من هذه السلسلة

الأه غال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الأسيان وأمريكية في القرن العشرين
350	مسرحتنا، 1- مجلة الأخ جيرو 2- تحول الأخ جيرو
351	روث الأدب (مختارات قصصية)
352	مسرحية، أنتيجون،
353	أجمل حكايات الزمن
354	يتبعها هن الهايكو
	مسرحية، المقهى،
355	مسرحتنا، 1- صناعة تاريخ 2- ترجمات
356	رواية، الشباب،
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)
358	مسرحتنا، 1- تلاميذ الخوف 2- الغزاة
359	اسمي أرام (مجموعة قصصية)
360	حامل الأكليل (قصص مختارة)
361	الصورة (مسرحية)
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)
364	سبع نساء... سبع قصص
365	زمن الضحك (ملهات خفيفة من ثلاثة رسول)
366	بالأبيض على الأسود (رواية)
367	مسرحتنا، 1- سهرة في المقهى 2- موت ممثل مشهور
368	إمراة وحيدة، فروع فرخزاد وأشعارها، سيرة حياة

# ما صدر من هذه السلسلة

369	الملاح، (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: يوجين شافياكسكي
370	ليلة التفتيح (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: توم كاوره
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو هسياملي با
373	الليلة التي أمضاها سوروفي السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورانس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الأيرلندي الأحدث	تأليف: مجموعة من الشعراء الأيرلنديين
375	المقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	المقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	الأسيرة، (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: موتيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: موتيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزيكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزيكيين
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنفواي (الجزء الأول)	تأليف: ارنست همنفواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنفواي (الجزء الثاني)	تأليف: ارنست همنفواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنفواي (الجزء الثالث)	تأليف: ارنست همنفواي
386	التمر الأبيض (رواية)	تأليف: أراهيتدا أديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجارييسك
388	فيلا ألمانيا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوتيان بارتر





## قسمة الاشتراك

سلسلة عالم المعرفة		مجلة عالم الفكر		مجلة الثقافة العالمية		إبداعات عالمية		البيان
دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	
-	٢٥	-	١٢	-	١٢	-	٢٠	المؤسسات داخل الكويت
-	١٥	-	٦	-	٦	-	١٠	الأفراد داخل الكويت
-	٣٠	-	١٦	-	١٦	-	٢٤	المؤسسات في دول الخليج العربي
-	١٧	-	٨	-	٨	-	١٢	الأفراد في دول الخليج العربي
٥٠	-	٢٠	-	٣٠	-	٥٠	-	المؤسسات في الدول العربية الأخرى
٢٥	-	١٠	-	١٥	-	٢٥	-	الأفراد في الدول العربية الأخرى
١٠٠	-	٤٠	-	٥٠	-	١٠٠	-	المؤسسات خارج الوطن العربي
٥٠	-	٢٠	-	٢٥	-	٥٠	-	الأفراد خارج الوطن العربي

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في، تسجيل اشتراك [ ] تجديد اشتراك [ ]

الاسم،	
العنوان،	
اسم المطبوعة،	مدة الاشتراك،
المبلغ المرسل،	نقدًا / شيك رقم،
التوقيع،	التاريخ: / / ٢٠٠٢م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي،

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب، 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت



# أسماء وكلاء التوزيع

هاتفكس	تليفون	العنوان	وكيل التوزيع الحالي	الدولة
24826823	24826820/1/2 24613872 /3	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	المجموعة الإعلامية العالمية	الكويت
00971 42660337	00971 242629273	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubai Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	الإمارات
00966 (01) 2121766	00966 (01) 2128000	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	الشركة السعودية للتوزيع	السعودية
00963 112128664	00963 112127797	سورية - دمشق - البرانكة	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية
00202 25782632	00202 25782700- 25782632	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	مؤسسة دار أخبار اليوم	مصر
00212 522249214	00212 522249200	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنفه سجلناسه - بلقدير - ص ب 13008	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب
00216 71323004	00216 71322499	تونس - ص ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	الشركة التونسية للمصحافة	تونس
00961 1653260	00961 1666314/5 01 653259	لبنان - بيروت - خندق الفميق - شارع سعد - بناية فواز	مؤسسة متنوع الصحفية للتوزيع	لبنان
00967 1240883	00967 2/3201901	الجمهورية اليمنية - صنعاء	القائد للنشر والتوزيع	اليمن
00962 65337733	00962 65300170 - 65358855	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	وكالة التوزيع الأردنية	الأردن
00973 17 480819	00973 17 480801	البحرين - النامة - ص ب 10324	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف	البحرين
24493200 00968	00968 24492936	ص ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذبية - سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	سلطنة عُمان
00974 44557819	00974 4557809/10/11	قطر - الدوحة - ص ب 3488	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر
00970 22964133	00970 22980800	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	شركة رام الله للنشر والتوزيع	فلسطين
002491 83242703	002491 83242702	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المثل - العطار رقم 52 - مربع 11	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان
00213 (0) 31909328	00213 (0) 31909590	Cite des preses FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	الجزائر
-	-	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	شركة الازدهار للتوزيع	العراق
00718 4725493	00718 4725488	Long Island City. NY 11101 - 3258	Media Marketing	نيويورك
44208 7493904	(0) 0044 2087499828 0044208 7423344	Universal Press & Marketing Limitd	Universal Press	لندن

# سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط. وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسمائها إلى سلسلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتتعلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترحة ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعاً على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق. وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

## الفهرس

5	الإهداء
7	قبل أي كلام!
15	بيوغرافيا إيزابيل إبراهيم
31	الغريمة
37	نحيب اللوز
43	ياسمينة
81	النقيب
111	تاعليث
117	اليد



المجلس  
الوطني  
للافاقة  
والفنون  
والآداب

## ياسمينية (وقصص أخرى)

نقدم للقارئ الكريم في هذا العدد مجموعة قصصية، ذات طابع عربي إسلامي أفريقي لمؤلفتها الروائية الرحالة الفرنسية إيزابيل إبراهيم (ولدت العام ١٨٧٧ في جنيف، وتوفيت العام ١٩٠٤ بالجزائر).

تتمتع هذه المجموعة القصصية المميّزة بجاذبيتها وتأثيرها الساحر في كل من يقترب من قراءتها، نظرا إلى كثرة ترحال الكاتبة إيزابيل بين فرنسا وروسيا والجزائر وكيفية إسلامها وزواجها من عربي مسلم على الرغم من ديانة أبيها النصرانيين.

وهذه المجموعة القصصية التي تضم القصص التالية: «الغريمة»، «نحيب اللوز»، «ياسمينية»، «النقيب»، «تاعليث»، «اليد» تتباين مواضيعها وتختلف، حيث تحاول من خلالها إيزابيل رصد الحياة وعادات المجتمع الجزائري وأحلامه وآماله ومعاناته. كما أنه من الملاحظ أن قصصها غالبا ما تبنى على ثنائيات متناقضة متعددة، كالتقاء حضارتين - الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية - المستعمر والمستعمر، العامل ورب العمل، رجل الدين والمريدون، البؤس والسعادة، وغيرها من الثنائيات.

ونأخذ على سبيل المثال قصة «ياسمينية»، فهي تتناول قصة حب تعالج من خلالها التقاء الغرب في شخص الضابط جاك بالشرق الممثل في شخصية ياسمينية، وفي الوقت نفسه هو التقاء واختلاف المستعمر والمستعمر في نمط الحياة والتفكير، وهو الصراع القائم بينهما.